علامة الأربعة

آرثر كونان دويل



علامة الأربعة

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
سارة ياقوت

مراجعة
زينب عاطف



علامة الأربعة

آرثر كونان دويل

The Sign of the Four

Arthur Conan Doyle

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩ ١٩٢١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

المحتويات

١- علم الاستنتاج ٧
٢- بيان القضية ١٥
٣- البحثُ عن حل ٢١
٤- قصة ذي الرأس الأصلَع ٢٧
٥- مأساة بونديتشيري لودج ٣٧
٦- شيرلوك هولمز يُقدِّم شرحًا ٤٥
٧- حادثة البرميل ٥٣
٨- قوات شارع بيكر غير النظامية ٦٥
٩- الحلقة المفقودة ٧٥
١٠- نهاية رجل الجزيرة ٨٥
١١- كنز أجرا العظيم ٩٣
١٢- قصة جوناثان سمول الغريبة ٩٩

الفصل الأول

علم الاستنتاج

التقط شيرلوك هولمز زجاجته من فوق زاوية رفِّ المِدفأة، وحُقنته من داخل غلافها الأنيق المصنوع من جلد الماعز. وبأصابعه البيضاء الطويلة المتوتِّرة ضبط سنَّ الحقنة الرفيع وشمَّر كُمَّ قميصه الأيسر. لوهلةٍ تأمَّل ساعده ورُسغه القوِيَّين اللَّذين تُغطيهما علامات وندوب حُقَن لا تُعدُّ ولا تُحصى. وأخيرًا، غرَس سنَّ الحقنة في مكانه، وضغط على مكبسها الصغير، ثم استرخى في مقعده المكسو بالمخمل وتنهَّد تنهيدةَ ارتياحٍ طويلة.

لشهورٍ عدة، شهدتُ هذا المشهد يحدُث ثلاثَ مرَّات يوميًّا، ولكنَّ تكراره لم يجعل عقلي يتقبله بأيِّ شكلٍ من الأشكال، بل على العكس، كان استيائي من المنظر يزداد يومًا بعد يوم، وظلَّ ضميري يُؤرِّقني كلَّ ليلة عندما تُراودني فكرة أنني لا أملك الشجاعة الكافية لأُبدي اعتراضي. أقسمتُ مرارًا وتكرارًا أن أُعبِّر عن رأيي في هذا الأمر، ولكن أسلوب رفيقي كان به من البرود واللامبالاة ما يجعله آخِرَ من تُريد الحديث معه بِحُريَّة بشأن أي أمرٍ شخصي؛ فالقدرات العظيمة التي يتمتَّع بها، وأسلوبه البارع ومعرفتي بصفاته الكثيرة الاستثنائية، كلها جعلتني أهابُ وأتراجع عن فِعل ما يُضايقه.

لكن في عصر ذلك اليوم، وربما من أثَرِ النبيذ الفرنسي الفاخر الذي تناولتُه مع الغداء أو حنَقي الزائد الذي أثاره أسلوبه الشديد التروِّي، شعرتُ فجأةً أنَّني لا أستطيع أن أكتُم الأمر بداخلي أكثر من ذلك.

سألته: «أي نوعٍ اليوم؟ مورفين، أم كوكايين؟»

رفع عينَيه بوهَنٍ عن المُجلَّد القديم المكتوب بأحرفٍ سوداء الذي كان قد فتحه، وأجاب: «إنه كوكايين؛ محلول تركيزه سبعة بالمائة. هل تودُّ تجربته؟»

أجبتُ بجفاء: «بالطبع لا، فجسدي لم يَتعافَ بعدُ من آثار الحملة الأفغانية. ولا أستطيع أن أُحمِّله أي جهد إضافي.»

قابل حدَّتي بابتسامة، وقال: «قد تكون مُحقًّا يا واطسون. أعتقد أن تأثيره على الجسم سيئ. ولكني أجده مُحفِّزًا جدًّا ومفتِّحًا للعقل لدرجةٍ تجعل من آثاره الجانبية أمرًا ثانويًّا.»

قلتُ بجدِّية: «لكن فكِّر في الأمر! احسب التكلفة! قد يُثير عقلك ويُحمِّسه كما تقول، لكنك تدفع مُقابل ذلك من عافيتك؛ فهو يتسبَّب في تغيُّرٍ زائد في الأنسجة وقد يُسبِّب فيما بعدُ ضعفًا مستديمًا. وأنت تعلم أيضًا كيف يجعلك مُتجهِّمًا. الأمر لا يستحقُّ العناء بالتأكيد. فلماذا تُغامر بفقدان قُدراتك العظيمة التي مُنحتَ إيَّاها مقابل مجرَّد لذَّةٍ عابرة؟ تذكَّر أني لا أُحدِّثك باعتباري فقط صديقك ولكن باعتباري طبيبًا مسئولًا عن صحتك بشكلٍ أو بآخَر.»

لم يبدُ أنه شعَرَ بالإهانة ممَّا قلت. بل على العكس، لامس أطراف أصابع يدَيه معًا وأسند مرفقَيه على ذراعَي كرسيِّه كمن يتُوق إلى الحديث وقال: «إن عقلي يثُور على الركود. أعطِني مُشكلات، أعطِني ما يشغَل عقلي، أعطِني أعقَدَ الشفرات لأَحُلَّها أو أصعبَ التحليلات، وسأكون في وضعي الطبيعي. حِينها يمكنني التخلِّي عن المُحفِّزات الاصطناعية. ولكنِّي أمقتُ رُوتين الحياة الطبيعية المُملَّ، وأتُوق إلى النشاط الذهني؛ ولهذا اخترتُ هذه المهنة على وجه التحديد، أو بالأصحِّ ابتكرتُها، فأنا الوحيد في العالم الذي يَمتهِنُها.»

رفعت حاجِبيَّ مُندهشًا وتساءلت: «أنت المُحقِّق غير الرسمي الوحيد؟»

أجاب قائلًا: «المُحقِّق الاستشاري غير الرسمي الوحيد؛ فأنا بمثابة أحدَثِ وأعلى محكمة استئناف في مجال التحقيقات. فعندما يُواجِه جريجسون أو ليستراد أو أثيلني جونز أمرًا يفوق حدود قُدراتهم — وهو ما يحدُث عادةً بالمناسبة — يضَعُونه بين يديَّ. فأفحَصُ أنا البيانات، بطريقة الخبراء، ثُمَّ أُطلق حُكمي كمُتخصِّص. لكني لا أنسِبُ الفضل لنفسي في هذه القضايا، ولا يظهر اسمي في أية جريدة. فأعظم مُكافأة لي هي العمل في ذاته، ومُتعة إيجاد مجال أمارس فيه قدراتي المُتميِّزة. أنت نفسك شهدتَ أساليبي في العمل في قضية جيفرسون هوب.»

قلتُ بمودَّة: «نعم بالطبع، ففي حياتي لم أنبَهِر بشيءٍ أكثر من ذلك، حتى إنني دوَّنت أحداثها في كُتيِّبٍ صغير ومنحتُها عنوانًا غريبًا بعض الشيء وهو «دراسة في اللون القرمزي».»

هزَّ رأسه بأسًى قائلًا: «لقد ألقيتُ نظرةً عليه، وبصراحة، لا أستطيع أن أُهنِّئك عليه؛ فعمل التحقيق في الواقع علمٌ دقيق، أو يجِب اعتباره كذلك، ويجِب أن يُعامل من هذا المنطلق ببرودٍ بعيدًا عن المشاعر. أما أنت فقد حاولتَ أن تُضفي عليه مسحةً رُومانسية، وكانت النتيجة تُشبِهُ محاولة إقحام قصَّةِ حُبٍّ أو قصة فرار حبيبَين في الفرضية الخامسة لإقليدس.»

اعترضتُ قائلًا: «لكنَّ الأمر لم يَخلُ من الرومانسية، وأنا لم يكن بإمكاني التلاعُب بالحقائق.»

«بعض الحقائق يجِب طمسُها، أو على الأقل مُعالجتها بقدْرٍ من التوازن. فالنقطة الوحيدة التي تستحقُّ الذكر في القضية هي الاستدلال التحليلي الدقيق الذي أوصَلَني من الآثار إلى الأسباب، ونجحتُ بفضلِهِ في حلِّ القضية.»

أغضبَني هذا النقدُ لعمَلِي الذي كتبتُه خصيصًا من أجل إسعاده. وأعترف أيضًا أنني انزعجتُ من أنانِيَّته التي كانت تُطالبني أن أُكرِّس كلَّ سطرٍ في الكُتَيب للحديث عن أفعاله المُميَّزة. فقد لاحظتُ أكثر من مرة خلال السنوات التي عشتُها معه في شارع بيكر أنَّ أسلوب صديقي الهادئ التعليمي يتخلَّله قدْرٌ من الغرور. على أيَّةِ حال لم أُعلِّق على كلامه، وجلست أُمرِّض ساقي المُصابة؛ فقد أُصِبتُ فيها برصاصةٍ من بندقية قنصٍ منذ زمن، ومع أنها لم تَعُقْني عن المشي، كانت تؤلمني بِشدَّة مع كلِّ تغيُّرٍ في الطقس.

قال هولمز بعد بُرهة وهو يملأ غليونه القديم المصنوع من جِذْر الورد البرِّي: «لقد امتدَّ نشاطي مؤخرًا إلى باقي أنحاء أوروبا؛ ففي الأسبوع الماضي طلَبَ استشارتي فرانسوا لو فيلارد، الذي برَزَ مؤخَّرًا على ساحة خدمات التحقيق في فرنسا كما تعلم. هو يمتلك سُرعة البديهة التي تُميِّز أجداده السلتِيِّين لكن تنقُصه المعرفة الدقيقة في المجالات الواسعة التي يحتاجها لتطوير حرفته أكثر. كانت القضية تدور حول وصية، وكان بها بعض السِّمات المُثيرة للاهتمام. استطعتُ أن أُحيله إلى قضيتين مُشابِهَتَين؛ واحدة حدثت في ريجا عام ١٨٥٧ والثانية في سانت لويس عام ١٨٧١، قادَتاه إلى الحلِّ الصحيح. وهذا هو الخطاب الذي تَلَقَّيتُه هذا الصباح للإشادة بمُساعدتي.» وبينما يتحدَّث ألقى إليَّ بورقةٍ مُجعَّدة من دفتر مُلاحظات أجنَبي. مررتُ بِعَينَيَّ عليها، ولمحتُ وفرةً من عبارات الإعجاب وكلماتٍ فرنسية مُتناثرة في كلِّ مكان، مثل «رائع»، و«ضربة بارعة» و«قُدرات مُذهلة» في مواضعَ مُتفرِّقة تشهَدُ جميعها على إعجاب الفرنسي الشديد.

قلت: «إنه يتحدَّث إليك مِثل الطالب إلى مُعلِّمه.»

قال باستخفاف: «إنه يُبالِغ في تقدير مُساعدتي، فهو لدَيه مواهِب كبيرة؛ فهو يمتلك اثنتَين من الخِصال الثلاث للمُحقِّق المِثالي؛ فلدَيه قوة الملاحظة، والقُدرة على الاستنتاج، ولكنه يفتقِر فقط إلى المعرفة، وهذه يُمكن أن تأتي مع الوقت. وهو يُترجِم حاليًّا أعمالي البسيطة إلى الفرنسية.»

«أعمالك؟»

صاح ضاحكًا: «ألا تعرِف؟ نعم، فأنا أعترِف بأني كتبتُ عدَّة دراسات، وكلها تدور حول موضوعاتٍ تقنية. فهذه، على سبيل المثال، دراسة حول التمييز بين رماد الأنواع المُختلِفة من التبغ. وفيها أدرجتُ مائةً وأربعين نوعًا من تبْغ السيجار والسجائر والغليون، وبها صُوَر ملوَّنة تُوضِّح الفرق بين رماد كلٍّ منها. فهذه نقطة تُثار باستمرار في المُحاكمات الجنائية، وأحيانًا تكون ذات أهمية قُصوى باعتبارها دليلًا. فإذا استطعتَ الجزْم، على سبيل المثال، بأن مُرتكِب الجريمة كان يُدخِّن سيجار لونكا الهندي، فسيُضيِّق ذلك مجال البحث بكلِّ تأكيد. وبالنسبة إلى العين المدرَّبة، فإنَّ الفرق بين الرَّماد الأسود لسيجار تريكينوبولي والزغب الأبيض الذي يُخلِّفه تبغ بيردز آي؛ كالفرق بين الكُرنْب والبطاطس.»

قلتُ له: «أنت تتمتَّع بموهبةٍ فذَّة في التعامُل مع أدقِّ التفاصيل.»

«أنا أُقدِّر أهميتها. وهذه هي دراستي حول تَقَفِّي آثار الأقدام، وبها بعض الملاحظات حول استخدام جبس باريس في حفظ الآثار. وهذه أيضًا دراسةٌ صغيرةٌ مُثيرة للاهتمام حول تأثير المِهنة على شكل اليدَين، وألحقتُ بها بصمات يدَين لبنَّائي أسقُف، وبحَّارين، وقاطِعي فلِّين، ومُنسِّقي طباعة، ونسَّاجين، ومُلمِّعي ألماس. فهذا أمر ذو أهميةٍ عمليةٍ كبيرة للمُحقِّق العلمي، وخاصةً في القضايا التي تتضمَّن جثثًا لم يتعرَّف عليها أحد، أو في اكتشاف سوابق المُجرمين. لكنِّي أُضجِرُك بالحديث عن هوايتي.»

أجبتُ بجدِّية: «على الإطلاق، إن هذا يُثير اهتمامي كثيرًا، خاصةً بعد أن تسنَّى لي أن أُشاهد تطبيقك العمَليَّ له. ولكنك كنتَ تتحدَّث الآن عن الملاحظة والاستنتاج؛ وهما نوعًا ما وجهان لعُملة واحدة.»

أجابَ وهو يتَّكئ في مقعده الوَثير وينفُثُ دُخانًا أزرق كثيفًا من غليونه لأعلى: «ليس تمامًا. فعلى سبيل المثال، لقد علمتُ من الملاحظة أنك ذهبتَ هذا الصباح إلى مكتب بريد شارع ويجمور، ولكن الاستنتاج يجعلني أعرف أنك أرسلتَ برقيَّةً من هناك.»

قلت: «هذا صحيح! أنت مُحقٌّ في النقطتَين! ولكنَّني أعترف بأني لا أفهم كيف توصَّلتَ إلى ذلك. لقد كان قرارًا مُباغِتًا من جانِبي ولم أُخبِر به أحدًا.»

ردَّ ضاحكًا من دهشتي: «الأمر بسيط جدًّا، بسيط لدرجةِ أنه لا يستلزِم شرحًا؛ ومع ذلك قد يُساعد في تعريف حدود الملاحظة والاستنتاج. لقد علمتُ من الملاحظة أن ثَمَّة القليل من التراب الأحمر اللون يلتصِق بنعل حذائك. وقُبالة قِسم شارع سيمور بدَءوا في رصف الشارع فوَضعوا الطين بطريقة تجعل من الصعب تفادي المشي فوقَه عند الدخول. وذلك الطين له هذا اللون الأحمر المميَّز نفسه الذي لا يُوجَد — على حدِّ علمي — في أي مكانٍ آخر في هذا الحي. إلى هنا ينتهي دور المُلاحظة، أما الباقي فهو استنتاج.»

«كيف استنتجتَ أمر البرقية إذن؟»

«حسنًا، أنا أعرف بالطبع أنك لم تكتُب خطابًا، وهذا لأني أجلس أمامك طوال النهار، وأرى أيضًا في مكتبك المفتوح ورقةً من الطوابع ورزمةً سميكة من البطاقات البريدية. فما الذي يدفعك إذن إلى الذهاب إلى مكتب البريد إلَّا لإرسال برقية؟ إذا استبعدتَ جميع العوامل الأخرى، ستجِد المُتبقِّي هو الحقيقة.»

فكرتُ قليلًا ثم قلتُ: «هذا صحيح في هذه الحالة. لكن كما قلت، هذا أمر بسيط. فهل ستعتبرني وقحًا إن وضعتُ نظرِيَّاتك أمام اختبارٍ أصعب؟»

أجاب: «على العكس، هذا سيمنعني من أخذ جرعةٍ أخرى من الكوكايين. سيُسعدني للغاية النظر في أية مشكلة تطرحها عليَّ.»

«لقد سمعتُك تقول إنه من الصعب أن يمتلك المرء غرضًا يستخدمه يوميًّا دون أن يترك أثرًا شخصيًّا عليه تستطيع العَين المدرَّبة ملاحظته. والآن أنا معي هنا ساعة جيب حصلت عليها مؤخرًا. هلا أخبرتَني عن شخصية صاحِبها السابق أو عاداته؟»

ناولتُه الساعة وأنا أشعر بقدْرٍ من الاستمتاع؛ فقد كان هذا الاختبار، من وجهة نظري، مُستحيلًا، وكنت أنوي استخدامه لتلقينِه درسًا أمام نبرَتِهِ الواثقة التي يتحدَّث بها أحيانًا. وازن الساعة في يدِه وحدَّق في مِينتها، ثم فتَحَها من الخلف وفحَصَ أجزاءها الداخلية، أولًا بعينه المُجرَّدة ثم بعدسةٍ محدَّبة قوية. منعتُ نفسي بصعوبة من الابتسام عندما ارتسَمَتْ على وجهه خَيبة الأمل وهو يُغلِق عُلبتها أخيرًا ويُعيدُها إليَّ.

قال مُعقِّبًا: «لا أكاد أجِدُ أيَّ بيانات؛ فقد تعرَّضَتِ الساعة مُؤخَّرًا للتنظيف، وذلك حرَمَني من الحقائق الكاشفة.»

أجبتُه: «هذا صحيح، فقد نُظِّفَت قبل أن تُرسَل إليَّ.» اتَّهمتُ صديقي في نفسي بأنه يُقدِّم عذرًا واهيًا وضعيفًا ليُبرِّر فشلَه؛ فما نوع المعلومات التي يُمكنه الحصول عليها من ساعة لم تُنظَّف؟

قال وهو يحدِّق في السقف بعينَين حالِمتَين شاحبتَين: «وعلى الرغم من عدَم حصولي على ما يكفي من المعلومات من خلال البحث، فإنَّني لم أخرج منه خاليَ الوفاض. صحِّح لي إن كنتُ مخطئًا. يُمكِنني القول إنَّ الساعة كانت ملكًا لأخيك الأكبر الذي وَرِثها بدَوره عن أبيك.»

«لقد خمنتُ هذا دون شكٍّ من حَرْفَي إتش ودبليو المَرسومَين على ظهرها؟»

«هذا صحيح؛ فحرف دبليو يُشير لاسم عائلتك. أما عُمر الساعة فهو خمسون عامًا تقريبًا، والأحرف من نفس عمرها؛ وبالتالي فهي مصنوعة من الجيل الماضي. وعادة ما تُورَّث المجوهرات للابن الأكبر الذي يكون اسمه الأخير، على الأرجح، هو نفس اسم أبيه. وإن لم تَخُنِّي الذاكرة، فقد تُوفِّي أبوك منذ عدة سنوات؛ وبالتالي أصبحَتْ في حيازة أخيك الأكبر.»

قلتُ له: «أنت مُحقٌّ حتى الآن، هل من شيءٍ آخر؟»

«كان أخوك رجلًا غير مُرتَّب، غير مُنظَّم، ومُهمِلًا جدًّا؛ فقد حصل على فُرَصٍ جيدة، لكنه أهدرها؛ فعاش فقيرًا لفترةٍ من الوقت تخلَّلَتْها فتراتٌ قصيرة من الرَّغَد. وأخيرًا لجأ إلى مُعاقرة الخمر ثُمَّ مات. هذا كلُّ ما يمكنني استنتاجُه.»

هبَبْتُ واقفًا من مقعدي وجُبْتُ الغرفة باستياءٍ وأنا أَعرُج وفي قلبي مرارةٌ كبيرة.

قلتُ: «هذا لا يَليقُ بك يا هولمز، فلم يُخيَّل لي أنك قد تنحدِر إلى هذا المستوى. لقد تحرَّيتَ عن تاريخ أخي التَّعيس، وها أنت ذا تتظاهَر بأنك استنتجتَ هذا كله بهذه الطريقة الخيالية. لا تتوقَّع مِنِّي أن أُصدِّق أنك استنتجتَ ذلك من ساعته القديمة! ما فعلتَه أمرٌ قاسٍ، وبصراحة به شيء من الدَّجَل.»

قال بلُطف: «أرجوك تقبَّل أَسَفي يا صديقي الطبيب العزيز. فقد نظرتُ إلى الأمر باعتباره مشكلةً مُجرَّدة، ونسيتُ كم هو أمرٌ شخصي ومُؤلِم بالنسبة إليك. لكن تأكَّد أني لم أكن أعلم أن لك أخًا قبل أن تُعطِيَني هذه الساعة.»

«إذن كيف، بحقِّ كلِّ ما هو خارق، عرفتَ هذه الحقائق؟ إنها صحيحة تمامًا بكلِّ تفاصيلها.»

«حسنًا، هذا نوع من الحظِّ الجيد. لم أَقُلْ إلَّا ما تُرجِّحُه كفَّة الاحتمالات، ولم أتوقَّع على الإطلاق أن أكون دقيقًا إلى هذا الحد.»

«ألم يكن ذلك مُجرَّد تخمين؟»

«لا، لا، فأنا لا ألجأ أبدًا للتخمين؛ فهو عادة مُريعة، وتأثيرها مُدمِّر على مَلكة التفكير المنطقي. أنت ترى هذا كله غريبًا بالنسبة إليك لأنك لا تَتَّبِع أسلوبَ تفكيري ولا تُلاحظ الحقائق الصغيرة التي يُمكن أن تُبنَى عليها استنتاجاتٌ كبيرة. على سبيل المثال، بدأتُ حديثي عن أخيك بقول إنه كان مُهمِلًا. إذا نظرتَ إلى الجانب السُّفلي من عُلبة الساعة هذه تُلاحظ أنها ليست مُنبعِجة فقط من مكانين، بل تُغطِّيها أيضًا خدُوش وعلامات جرَّاء وضع أشياءَ حادَّة، مثل عملاتٍ معدنية أو مفاتيح، معها في الجيب نفسه. وبالطبع الافتراض بأنَّ رجلًا يُعامل ساعة قِيمتُها خمسون جنيهًا بهذا الاستهتار لا بدَّ أن يكون مُهمِلًا؛ أمر لا يحتاج إلى عبقري. كذلك ليس من الصعب الاستدلال من ذلك على أن رجلًا ورِثَ غرضًا واحدًا بتلك القِيمة قد تُرك له أيضًا ما يكفيه في النواحي الأخرى من حياته.»

أومأتُ برأسي مُوضِّحًا موافقتي على استدلالاته المنطقية.

«ومن عادة المُرتهِنين في إنجلترا أنهم عندما يَرهَنون ساعة يَنقُشون رقم التذكرة داخل علبة الساعة بسنٍّ حاد. هذا عمليٌّ أكثر من إلصاق الرقم عليها، فلا يُخاطرون بإضاعة الرقم أو تبديله. رأيتُ ما لا يقلُّ عن أربعة من تلك الأرقام بعدستي داخل علبة الساعة. وأستدلُّ من هذا على أنَّ أخاك كثيرًا ما كان يقَعُ في ضائقةٍ مالية، وأستدلُّ أيضًا على أنه كان يمرُّ بفتراتٍ عابرة من التَّرَف، وإلَّا ما كان ليستعيد الساعة المرهونة. وأخيرًا، أطلبُ منك النظر إلى اللَّوح الداخلي الذي به ثُقب المفتاح. انظر إلى آلاف الخدوش الموجودة حوله، وهي علامات تَعني أن المفتاح كان ينزلِق. أهناك رجلٌ غير مخمور يترُك مثل تلك العلامات؟ ولكنك لن تجِدَ ساعة رجلٍ سكِّير تخلو منها؛ فهو يُعيدها إلى عبوتها في الليل، وتترُك يدُه المرتعشة هذه الآثار. أخبرني إذن أين الغموض في ذلك؟»

أجبته: «إن هذا واضِح كالشمس، أعتذِر عن الإساءة التي وجَّهتُها لك؛ فقد كان يجدُر بي أن أثِقَ أكثر بقدراتك المُذهِلة. هل تسمح لي أن أسألك إن كنتَ تتولَّى أية قضايا في الوقت الحالي؟»

«كلا، ولذلك لجأتُ إلى الكوكايين؛ فأنا لا أستطيع أن أحيا دون استثارة عقلي. هل يُوجَد شيء آخر يستحقُّ أن أحيا من أجله؟ انظر من تلك النافذة. أرأيتَ ما هو أكثر كآبةً ووحشةً وجدبًا من ذلك العالم الموجود بالخارج؟ أترى كيف يزحف الضباب الأصفر ليُغطي الشارع ويلتفَّ حول المنازل ذات الألوان القاتمة. أيُوجَد ما هو أكثر ضجرًا ومادِّيَّةً من ذلك؟ ما فائدة التمتُّع بقدراتٍ إن لم يكن لدى المرء مُتَّسَع لاستخدامها؟ الجريمة أمرٌ عادي، والوجود أمرٌ عادي، ولا تُوجَد أي صفاتٍ عادية أخرى عدا هاتَين لها فائدة في هذه الحياة.»

ما إن كدْتُ أفتح فمي للردِّ على هذه الخطبة المُطوَّلة، حتى طرقَتْ صاحبة المنزل الباب، ودخلت وهي تحمل بطاقةً على صينيةٍ فضية.

قالت مُوجِّهة حديثها لصديقي: «هناك سيدةٌ شابَّة تطلُب مقابلتك يا سيدي.»

قرأ بصوتٍ عالٍ: «الآنسة ماري مورستان، حسنًا! لا أذكر هذا الاسم. اطلُبي من الآنسة أن تصعد إلينا يا سيدة هادسون. لا تذهَبْ يا دكتور، فأنا أُفضِّل أن تبقى.»

الفصل الثاني

بيان القضية

دخلَتِ الآنسة مورستان الغرفة بخطواتٍ واثقة. يبدو عليها ظاهريًّا التماسُك. كانت شابَّةً شقراء ضئيلة الحجم أنيقة، ترتدي قفَّازًا سميكًا وملابس راقية الذَّوق. إلَّا أن ملابِسَها كان بها شيء من البساطة تُوحي برِقَّةِ الحال. كان فستانها لونُهُ بيج داكن يَميل إلى الرمادي، غير مُشذَّب الأطراف ولا مَجدول، وكانت ترتدي قبعةً صغيرة بنفس اللون الباهت، لا يكسِر كآبتها إلا ريشةٌ بيضاء على جانبها. لم تكن ملامح وجهها مُنمَّقة ولا بشرَتُها جميلة، لكن تعبيرات وجهها كانت عذْبةً ولطيفة، وعيناها الزرقاوان الواسعتان كان بهما قدْر غير عادي من الروحانية والود. وخلال معرفتي بالنساء التي امتدَّت لعدة جنسيات وعبر ثلاث قارات، لم أرَ وجهًا يعكس طبيعة صاحبته الرقيقة والحساسة أكثر من وجهها. لاحظتُ ارتجاف شفتَيها وارتعاش يدَيها بينما جلَسَت على المقعد الذي وضعه شيرلوك هولمز لها، وظهرت عليها جميع علامات الاضطراب الداخلي.

قالت: «أتيتُ إليك يا سيد هولمز لأنك ساعدتَ من قبلُ السيدة سيسِل فورستر ربَّة عملي على كشف غموض مشكلةٍ أُسَرية. وقد انبهرتُ كثيرًا بلُطفك ومهارتك.»

كرَّر بإمعانٍ في التفكير: «السيدة سيسِل فورستر، أظنُّ أنني أسديتُ إليها بالفعل خدمةً بسيطة. لكن على ما أذكر كانت القضية سهلةً للغاية.»

«هي لا تعتقِد ذلك، ولكن على الأقل لا يمكنك قول هذا عن قضيتي. لا أتخيَّل أيَّ شيء أغرب وأصعب تفسيرًا من الموقف الذي أنا فيه الآن.»

فرَك هولمز يدَيه ولمعت عيناه. مال للأمام في مقعده وبدَتْ على ملامحه الحادة التي تُشبِهُ ملامح الصقر علاماتُ التركيز الشديد، ثم قال بنبرةٍ مِهنيةٍ حادَّة: «اعرضي قضيتك.»

شعرتُ بأن وضعي حرِج، فقلتُ وأنا أنهض من مقعدي: «عن إذنكما.»

لدهشتي رفَعَتِ الشابة يدَها، التي يُغطيها القفاز، لإيقافي، وقالت: «إذا تفضَّلَ صديقك بالبقاء فقد يستطيع إسداء خدمةٍ جليلة لي.»

عدتُ إلى مقعدي مرةً أخرى.

استطردتْ قائلة: «باختصار، الوقائع كالآتي. كان والدي ضابطًا في كتيبةٍ في الهند، وقد أعادني إلى الوطن عندما كنتُ طفلةً صغيرة. لم تكن والدتي على قيد الحياة، ولم يكن لي أقارب في إنجلترا؛ وعليه، التحقتُ بمدرسةٍ داخليةٍ مُريحة في إدنبرة، ومكثتُ فيها حتى بلغتُ سبعة عشر عامًا. وفي عام ١٨٧٨ حصل والدي، الذي أصبح عميدًا في فرقته، على إجازةٍ مُدَّتُها اثنا عشر شهرًا، وعاد للوطن. أرسل إليَّ برقية من لندن يُخبرني فيها أنه وصل بسلام، ويَطلُب مِنِّي أن آتي إليه بسرعة، وأعطاني عنوانه في فندق لانجهام. كانت رسالته، على ما أذكر، مليئةً بالحُبِّ والحنان. وعنما وصلتُ إلى لندن ذهبتُ بالسيارة إلى لانجهام، وهناك أخبروني بأنَّ النقيب مورستان كان نزيلًا بالفندق ولكنه خرج ليلة أمس ولم يعُدْ بعدُ. انتظرتُ طوال اليوم ولكن لم ترِد أيُّ أخبار عنه. عملًا بنصيحة مُدير الفندق، تواصلتُ مع الشرطة تلك الليلة، وفي اليوم التالي وضعْنا إعلانًا في جميع الصُّحف. لم تُسفِر تحرِّياتنا عن أية نتائج؛ ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن لم أسمع أي أخبار عن والدي التعيس الحظ. لقد عاد إلى الوطن وقلبه مُفعم بالأمل باحثًا عن القليل من السكينة والراحة، ولكنه بدلًا من ذلك ...» وضعَتْ يدَها على حلقها وقطع بكاؤها المكتوم عبارَتَها.

فتح هولمز دفتر مُلاحظاته وسألها: «ما تاريخ الواقعة؟»

«اختفى في الثالث من ديسمبر عام ١٨٧٨، منذ قُرابة عشر سنوات.»

«وأمتِعتُه؟»

«ظلت في الفندق، ولم يكن بها أي دليل. كان بها بعض الملابس، وبعض الكتُب، وعددٌ كبير من التُّحَف النادرة من جزُر أندمان؛ فقد كان أحد الضباط المسئولين عن حراسة السجن هناك.»

«هل كان له أي أصدقاء في المدينة؟»

«صديقه الوحيد الذي أعرفه هو الرائد شولتو، زميله في الكتيبة نفسها، وهي كتيبة المُشاة الرابعة والثلاثين ببومباي. وهذا الرائد تقاعَدَ قبل وقتٍ قليل، وعاش في منطقة أبر نوروود. تواصلنا معه بالطبع، ولكنه لم يكن حتى يعلم أن زميله في الكتيبة عاد إلى إنجلترا.»

علق هولمز قائلًا: «قضية غريبة.»

«أنا لم أصل بعدُ إلى وصف الجزء الأغرب منها. فمنذ ستِّ سنوات، وبالتحديد في الرابع من مايو عام ١٨٨٢، ظهر إعلان في جريدة التايمز يسأل عن عنوان الآنسة ماري مورستان، ويقول إنه سيكون من مصلحتِها أن تردَّ على الإعلان. لم يكن هناك أي اسم أو عنوان مُلحق بالإعلان. كنتُ حينها قد دخلتُ إلى أسرة السيدة سيسِل فورستر، وبدأتُ العمل لديها مُربية. وعملًا بنصيحتها نشرتُ عنواني في عمود الإعلانات. وفي نفس اليوم، وصلَني عبر البريد صندوق من الورَق المُقوَّى صغير عليه اسمي، وفتحتُه لأجد بداخله لؤلؤةً كبيرة ولامعة جدًّا. لم يُرفَق معها أية كلمةٍ مكتوبة. ومنذ ذلك الحين، كلَّ عام في التاريخ نفسه يَصِلني صندوقٌ شبيه، بداخله لؤلؤةٌ شبيهةٌ دون أي دليل على مُرسِله. أكَّد لي خبير أنَّ هذه اللآلئ من نوعٍ نادر وقيمتها كبيرة. يُمكنكما أن ترَيا جمالَها بأنفسكما.»

فتحَتْ صندوقًا مُسطَّحًا وهي تتحدَّث وأرتْنا ستًّا من أجمل اللآلئ التي رأيتُها في حياتي.

قال شيرلوك هولمز: «ما قلتِه مُثير جدًّا للاهتمام، هل حدَث لك أيُّ أمرٍ آخر؟»

«نعم، اليوم بالتحديد؛ ولذلك أتيتُ إليك. هذا الصباح تسلَّمتُ هذا الخطاب، ربما يكون من الأفضل لو قرأتَه بنفسك.»

قال هولمز: «شكرًا لكِ، أعطيني الظرف أيضًا من فضلِك. ختم البريد: لندن، إس دبليو. التاريخ: ٧ يوليو. حسنًا! تُوجَد بصمة رجل على الجانب، غالبًا تعود لساعي البريد. الورق عالي الجودة. الحزمة من ذلك الظرف ثمنها نصف الشلن. هذا رجل ذوقُه رفيع في الأدوات المكتبية. لا يوجَدُ عنوان. «انتظري عند العمود الثالث من اليسار خارج مسرح لايسيوم الساعة السابعة مساء اليوم. إذا شعرتِ بالارتياب، يُمكنك اصطحاب صديقَين معك. أنتِ سيدة مظلومة وسوف يُرَد إليكِ حقُّك. لا تُحضِري الشرطة، إن فعلتِ، فسيذهب كلُّ هذا هباءً. صديقك المجهول.» حسنًا، هذا حقًّا أمرٌ غامض للغاية. ما الذي تنوِين فِعله يا آنسة مورستان؟»

«هذا ما أردتُ أن أسألك بشأنه.»

«إذن أرى أن نذهب بالطبع. أنا وأنتِ، ومعنا ... نعم الدكتور واطسون هو الرجل المناسب لهذه المهمة؛ فمُرسل الخطاب يقول صديقَين. وقد عمِلْنا أنا وهو معًا من قبلُ.»

«لكن هل سيوافق على المجيء معنا؟» سألتْ بنبرةٍ وتعبيرات فيها شيء من الرجاء.

قلتُ بحماس: «سأكون فخورًا وسعيدًا إن استطعتُ المُساعَدة بأية طريقة.»

أجابت: «أنتما لطيفان جدًّا، لقد عشتُ حياةً مُنعزلة وليس لديَّ أصدقاء ألجأ إليهم. إذا حضرتُ إلى هنا في الساعة السادسة فسيكون هذا مُناسبًا، أليس كذلك؟»

قال هولمز: «يجِب ألَّا تتأخَّري عن ذلك، لكنْ هناك نقطةٌ أخيرة. هل خطُّ اليد هذا هو الخطُّ نفسه الموجود على عُلَب اللآلئ؟»

أجابت: «لقد أحضرتُها معي.» وأخرجتْ ستَّ ورقات.

«أنتِ عميلةٌ مِثالية حقًّا؛ فحدسُك سليم. لِنرَ الآن.» فرَشَ الأوراق على الطاولة وجال بنظرِه بسرعة بينها ثم قال: «هذه خطوطُ يدٍ يُحاول صاحبها إخفاء هويته، باستثناء الخطاب، لكن لا شكَّ في أن كاتِبَها واحد. أترَيان كيف يظهَرُ حرف «إي» الذي يصعُب إخفاء طريقة كتابته، وانظر أيضًا إلى الجزء المُلتفِّ من الحرف «إس» الأخير. لقد كتبَها كلها شخصٌ واحد بلا شك. لا أريد أن أمنحكِ أملًا زائفًا يا آنسة مورستان، ولكن هل يُوجَد أي تَشابُهٍ بين خط يد أبيك وهذا الخط؟»

«لا يُوجَد أي وجه شبَهٍ بينهما على الإطلاق.»

«توقَّعتُ أن تقولي هذا. سوف نكون في انتظارك إذن في الساعة السادسة. أرجو أن تسمحي لي بالاحتفاظ بالأوراق؛ قد أحتاج أن أنظُر في الأمر قبل موعِدِنا؛ فالساعة الآن لم تتعدَّ الثالثة والنصف، إلى اللقاء إذن.»

«إلى اللقاء!» قالت زائرتُنا هذا ورمقَتْ كلًّا منَّا بنظرةٍ مُبتهِجة وودودة، ومن ثم أعادت صندوق اللآلئ إلى جَيبِها وذهبت مُسرعة. وقفتُ أمام النافذة وشاهدتُها تبتعِد بخطواتٍ سريعة حتى أصبحتْ قُبَّعتها الرمادية ذات الريشة البيضاء مثل بُقعةٍ صغيرة في نسيج الحشود القاتم.

التفتُّ إلى صديقي وصِحتُ قائلًا: «يا لها من امرأةٍ جذَّابة!»

كان قد أشعل غليونه مُجدَّدًا واستلقى للخلف مُرخيًا جفنيه. وقال بفتور: «حقًّا؟ لم ألحظ ذلك.»

صحتُ: «أنت حقًّا إنسانٌ آلي، آلة حاسبة! فثمَّة جانبٌ غير آدمي بك أراه أحيانًا.»

ابتسَمَ بلُطف وقال: «من المهم جدًّا ألا تسمح لنفسك أن تكون مُتحيزًا في حكمك بسبب الصِّفات الشخصية. العميل بالنسبة إليَّ مجرَّد وحدة، مجرَّد عنصر في القضية؛ فالصفات المُثيرة للمشاعر هي عدوٌّ للتفكير المنطقي الواضح. أؤكد لك أن أكثرَ النساء اللاتي قابلتُهنَّ جاذبية شُنِقَت بتُهمة تسميم ثلاثة أطفالٍ طمعًا في أموال التأمين على حياتهم، وأكثر الرجال دمامةً في دائرة معارفي هو رجل خيِّر للغاية أنفقَ قرابة رُبع مليون جنيه على فقراء لندن.»

«لكن في هذه الحالة ...»

«أنا لا أُعطي أية استثناءات؛ فالاستثناء يُبطِل القاعدة. هل أُتيحَتْ لك من قبلُ الفرصة لدراسة الشخصية من خطِّ اليد؟ ماذا تستنتِج من خطِّ هذا الشخص؟»

أجبتُه: «إن خطَّهُ مقروء ومُنتظِم؛ فهو رجلٌ عملي وقوي الشخصية.»

هزَّ هولمز رأسه نفيًا وقال: «انظُر إلى هذه الأحرف الطويلة؛ فهي بالكاد ترتفِع عن باقي الأحرف؛ الفحرف d هذا قد يُقرَأ a والحرف l قد يُقرَأ e. الرجال ذوو الشخصيات القوية دائمًا ما يُميزون الأحرف الطويلة بصرْف النظر عن صعوبة قراءة خطِّهم. كما أنَّ طريقة كتابته للحرف k تنمُّ عن التذبذُب، وطريقة كتابته للأحرف الكبيرة تنمُّ عن الثقة بالنفس. سوف أخرُج الآن. أريد التأكُّد من بعض الأمور. دعْني أُرشِّح لك هذا الكتاب، وهو واحد من أبرز الكتُب. إنه كتاب «استشهاد الإنسان» لوينوود ريد، وسوف أعود بعد ساعة.»

جلستُ أمام النافذة وفي يدي الكتاب، ولكنِّي سرحتُ بأفكاري بعيدًا عن تنبُّؤات الكاتب الجامحة، فتذكَّرتُ زائرتنا الأخيرة؛ ابتساماتها ونبرات صوتها الدافئة العميقة، واللغز الكبير الذي يُخيِّم على حياتها. إذا كان عمرها عند اختفاء والدها سبعة عشر عامًا، فهي في السابعة والعشرين الآن، وهو عمرٌ لطيف؛ حيث يفقِد الشبابُ إحساسه الزائد بالذات وتكون التجارب قد أكسبتْهُ شيئًا من الرَّصانة. جلستُ سارحًا في أفكاري حتى راوَدَتْني أفكارٌ خطرة جعلتني أُهرَع إلى مكتبي وأنهمِكُ بشدَّة في قراءة آخِر أطروحةٍ حول عِلم الأمراض. أنا مجرَّد جرَّاح بالجيش ساقُه ضعيفة ورصيد حسابه البنكي أضعَف؛ فمن أنا لأجرُؤَ على التفكير في مِثل تلك الأمور؟ إنها مجرَّد وحدة أو عامل لا أكثر. وإذا كان مُستقبلي مُظلمًا، فالأفضل أن أُواجِهَه كالرجال، وليس أن أُنيرَه بوهجٍ كاذبٍ من وحيِ الخيال.

الفصل الثالث

البحثُ عن حل

عاد هولمز في الخامسة والنِّصف. بدا سعيدًا ومُتحمِّسًا ومعنوياته مُرتفعة، وهي حالةٌ مِزاجية تتناوَب مع نوباتٍ من الاكتئاب الشديد في حالته.

قال وهو يلتقِط كوب الشاي الذي أعددتُه له: «الأمر ليس لغزًا كبيرًا؛ فالحقائق تُشير إلى تفسيرٍ واحد فقط.»

«ماذا! هل حللتَ القضية بالفعل؟»

«حسنًا، سأُبالِغ إن قلتُ هذا. كلُّ ما في الأمر أنَّني اكتشفتُ حقيقةً مُوحِية؛ مُوحِية للغاية في الواقع. أمَّا التفاصيل فلم تنكشِف بعدُ. لقد اكتشفتُ للتوِّ بعد الرجوع إلى أرشيف جريدة التايمز أنَّ الرائد شولتو الذي كان يعيش في أبر نوروود والمُتقاعِد من كتيبة المُشاة الرابعة والثلاثين ببومباي، قد تُوفِّي في ٢٨ أبريل عام ١٨٨٢.»

«قد أكون بليدًا جدًّا يا هولمز، لكنِّي لا أري ما الذي يُوحي به ذلك.»

«حقًّا؟ أنت تُفاجئني. فلتنظُر إلى الأمر من تلك الزاوية إذن. النقيب مورستان يختفي، والشخص الوحيد الذي كان بإمكانه زيارته في لندن هو الرائد شولتو. لكن الرائد شولتو ينفي معرفته بأنه موجود في لندن. وبعد ذلك بأربعة أعوام يموت شولتو. وخلال أسبوع من وفاته، تتلقَّى ابنة النقيب مورستان هديةً قيِّمةً تتكرَّر كلَّ عام وينتهي الأمر بذلك الخطاب الذي يصِفُها بأنها مظلومة. ما الظلم الذي يقصِدُه إن لم يكن سَلْبَها أباها؟ ولماذا تبدأ الهدية بعد وفاة شولتو مباشرةً إلَّا إذا كان وريث شولتو يعلم شيئًا عن هذا اللُّغز ويرغَب في تعويضها؟ هل لدَيك أية نظريةٍ بديلة أخرى تتَّسِق مع تلك الحقائق؟»

«ولكن يا له من تعويضٍ غريب! وطريقة تنفيذه أغرب! ولماذا أيضًا يكتُب خطابًا الآن، وليس منذ ستَّةِ أعوام؟ ومرةً أخرى، يتحدَّث الخطاب عن تحقيق العدالة لها. ما

العدالة التي يمكن أن تتحقَّق لها؟ يصعُب افتراض أنَّ أباها لا يزال على قيد الحياة. وأنت تعلم أنه ليس ثمَّة ظلمٌ آخر وقع عليها إلَّا هذا.»

قال هولمز وهو مُستغرق في التفكير: «تُوجَد بعض الصعوبات، بالتأكيد تُوجَد بعض الصعوبات، ولكن رحلتنا الاستكشافية الليلة سوف تُزيلها جميعًا. ها قد جاءت عربة وبداخلها الآنسة مورستان. هل أنت مُستعِد؟ إذن لننزِل إليها، فقد تأخَّرنا قليلًا.»

أخذتُ قُبَّعتي وأثقل عصًا أملِكها، ولكنِّي لاحظتُ أن هولمز أخرج مُسدَّسه من دُرج المكتب ووضعه في جيبه؛ كان من الواضح أنه كان يظنُّ أن مهمَّتَنا الليلية قد تكون خطيرة.

كانت الآنسة مورستان مُلتحِفةً بمعطفٍ فضفاضٍ داكن، وكان وجهها الرقيق يبدو متماسكًا ولكنه شاحب؛ فإنها ستكون امرأةً خارقة إن لم يكن ينتابُها بعض التوتُّر بشأن الرحلة الغريبة التي نحن مُقدِمون عليها، لكنها كانت على مستوًى عالٍ من ضبط النفس، وأجابَتْ على الفور عن بعض الأسئلة الإضافية القليلة التي طرَحَها هولمز عليها.

قالت: «لقد كان الرائد شولتو صديقًا مُقرَّبًا جدًّا لأبي، فقد كان أبي يذكُره كثيرًا في خطاباته. كان هو وأبي يقودان القوات في جزُر أندمان، لذا خاضا العديد من الصعوبات معًا. وبالمناسبة، عُثر على ورقةٍ غريبة في مكتب أبي لم يفهم أحدٌ منها شيئًا. لا أظنُّ أنها ذات أهمية تُذكَر، لكنِّي اعتقدت أنك قد ترغَب في رؤيتها؛ لذا أحضرتُها معي، ها هي.»

فتح هولمز الورقة بحرصٍ وفَرَدَها على رُكبته، ثم فحصها بعناية بعدسته المزدوجة.

علَّق قائلًا: «هذه ورقةٌ مصنوعة في الهند، وقد ظلَّتْ مُعلَّقةً بدبُّوس على لوحٍ لبعض الوقت. المُخطَّط المرسوم عليها يبدو أنه خريطة لجُزء من مبنًى كبير به العديد من الردهات والممرَّات والأروِقة. وعند نقطة مُعينة هناك علامة صليبٍ صغيرة مرسومة بالحِبر الأحمر، وفوقها مكتوب «٣٫٣٧ من اليسار» بقلم رصاص باهِت. وفي الطرف الأيسر يُوجَد رمز غريب وتصعُب قراءته يُشبِهُ أربعة صلبان على خطٍّ واحدٍ تتلامَس أطرافها. ومكتوب بجوار هذا الرمز بحروفٍ حادَّة وسميكة جدًّا «علامة الأربعة — جوناثان سمول، محمد سينج، عبد الله خان، دوست أكبر.» لا، أقرُّ بأنَّني لا أرى علاقة هذا بالأمر، لكن من الواضح أنها وثيقةٌ مُهمَّة؛ فقد حُفظت بعناية داخل صفحات مُفكِّرة جيب، فجانِباها على الدرجة نفسها من النظافة.»

«لقد وجدناها في مُفكِّرة جيبه.»

«احفظيها بعناية إذن يا آنسة مورستان؛ فقد يتَّضِح أنها ذات أهمية بالنسبة إلينا. فقد بدأتُ أشكُّ في أنَّ هذا الأمر قد يكون أعمقَ بكثيرٍ وأكثر غموضًا ممَّا ظننتُه في البداية. يجِب أن أُعيد النظر في أفكاري.» استرخى في مقعده في العربة واستنتجتُ من حاجبَيه المَعقودَين وعينيه الخاويتَين أنه غارق في التفكير. تحدثتُ مع الآنسة مورستان بنبرةٍ خافتة عن رحلتنا الحالية ونتائجها المُحتمَلة، لكن رفيقَنا ظلَّ على صمته المنيع حتى نهاية رحلتنا.

كان هذا المساء في شهر سبتمبر، ولم تكن الساعة قد دقَّت السابعة بعدُ، ولكن اليوم كان كئيبًّا، وكان الضباب المصحوب بمطرٍ خفيف يُخيِّم على المدينة العظيمة. كانت السُّحب ذات اللون الطيني تذرف قطرات المطر بحزن فوق الشوارع الموحِلة. وفي شارع ستراند بدَتِ المصابيح كأنها مجرَّد بُقَع ضوءٍ مُشتَّت تُلقي بوميضها الدائري الخافِتِ على الرصيف المُوحِل. كان الوهَج الأصفر المُنبعِث من واجهات المحلَّات يتسلَّل إلى الهواء الضبابي المُعبَّأ بالرطوبة ويُلقي بشعاعه المُتحرِّك القاتم على الشارع الرئيسي المزدحِم. كنتُ أرى في التَّتابُع اللانهائي للوجوه المُتدفِّقة تحت خطوط الضوء الرفيعة شيئًّا موحِشًا ومُخيفًا؛ وجوهًا حزينة ووجوهًا سعيدة، وجوهًا عابِسةً ووجوهًا فرحة. وكعادة الجنس البشري بأكمله، كانت تنتقل بسرعة من الظلام إلى الضوء، ومنه تعود إلى الظلام مرةً أخرى. أنا لا أتأثَّر عادةً بالانطباعات، لكن هذا المساء الكئيب الحزين تَحالَف مع المَهمَّة الغريبة التي نحن بصدَدها ليَجعلاني أشعُر بالتوتُّر والكآبة. واستطعتُ أن أُدرك من مظهر الآنسة مورستان أنها تُشاركني تلك المشاعر. وحدَه هولمز كان يترفَّع عن الوقوع أسيرًا لتلك المُؤثِّرات التافهة؛ فقد كان يضع دفتر ملاحظاته المفتوح على ركبته، ومن آنٍ لآخر كان يخطُّ فيه رموزًا وملاحظاتٍ تحت ضوء مصباح جَيبِه.

أمام مسرح لايسيوم، كانت الحشود كثيفةً بالفعل عند المداخل الجانبية، وفي الأمام، توافَدَ سَيلٌ من العربات التي تسابقَتْ لإنزال حمولتها من الرجال الذين تظهر قمصان بدلاتهم والنساء اللاتي يرتدينَ الشالات والمجوهرات. وما كدْنا نصِل إلى العمود الثالث، مكان موعِدنا المُتَّفق عليه، حتى بادَرَنا بالحديث رجلٌ أسمرُ ضئيلٌ خفيف الحركة يرتدي ملابس سائق عربة.

سألَنا: «هل أنتما من أتيتُما بصحبة الآنسة مورستان؟»

قالت: «أنا الآنسة مورستان وهذان السيدان صديقاي.»

نظر إلينا بعينَين ثاقِبتَين مُتفحِّصتَين وقال بأسلوبٍ صارم: «اعذريني يا آنسة، عليَّ أن أطلُب منك أن تُعطيني كلمتك بأنَّ ليس أيٌّ من رفيقَيك ضابط شرطة.»

أجابت: «أؤكد لك ذلك.»

أطلق صفيرًا حادًّا أحضر على إثره طفلٌ مُتسوِّل عربةً تجرُّها الخيل وفتح بابها. ركب الرجل الذي تحدَّث إلينا مكان السائق وأخذْنا نحن أماكِننا داخل العربة. وما إن فعلْنا هذا حتى ضرب السائق حصانه بالسَّوط وانطلَقَ بسرعةٍ كبيرة عبر الشوارع الضبابية.

كان الموقف مُريبًا؛ فقد كنا ننطلِق إلى مكانٍ مجهول في مَهمَّةٍ مجهولة. إلَّا أن دعوتَنا تلك إما أن تكون خدعة تامَّة — وهو افتراض غير وارد — وإما أن ثمَّة ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن أمورًا مُهمَّة قد تكون معلقةً على رحلتنا. بدَتْ أقصى درجات التماسُك والحزم على الآنسة مورستان. حاولت أن أُروِّح عنها وأُسلِّيها بمُقتطفاتٍ من مُغامراتي في أفغانستان، لكني أنا نفسي صراحةً كنت قلقًا من وضعِنا ولديَّ فضول لأعرف وجهتنا؛ لدرجةٍ جعلَتْ قصصي مُشوَّشةً قليلًا. وإلى يومنا هذا تقول إني حكيتُ لها حكايةً مُؤثِّرة مُضطربة عن بندقيَّةٍ دخلت إلى خيمتي في ظلام الليل، وكيف أطلقتُ عليها النار من نمرٍ صغيرٍ له ماسورة مزدوجة. في بادئ الأمر كانت لديَّ فكرة عن الاتجاه الذي نسير فيه، ولكن سُرعان ما فقدتُ شعوري بالاتجاهات بسبب السرعة والضباب ومعرفتي المحدودة بشوارع لندن، ولم أشعُر غير أنَّنا نسير لمسافةٍ طويلة. لكن شيرلوك هولمز لم يُخطئ ولا مرة، وكان يُتمتِم بالأسماء بينما أسرعَتِ العربة قاطعةً الميادين والشوارع الجانبية المُتعرِّجة.

قال: «روتشستر رو، وهذا ميدان فينسنت، والآن وصلْنا إلى طريق فوكسهول بريدج. يبدو أنَّنا نعبُر الآن إلى جانب سوري من النهر. نعم، كما ظننت. والآن نحن على الجسر. فيمكنكُما أن تلمحا النهر.»

لمحْنا فعلًا نظرةً خاطفة من نهر التيمز ومصابيح الإنارة يسطع ضوءُها على سطحه الواسع الساكن، لكن عربتْنا أكملتْ طريقَها في اندفاع، وما لبثَتْ أن دخلتْ إلى شبكةٍ مُتداخلةٍ من الشوارع على الجانب الآخر من النهر.

قال رفيقي: «طريق ووردسورث، وطريق بريوري، جادَّة لارك هول، ستوكويل بليس. وشارع روبرت، وجادَّة كولد هاربور. يبدو أن قضيَّتَنا هذه لن تأخُذنا إلى مناطقَ راقية.»

كنَّا قد وصلْنا بالفعل إلى حيٍّ مَشبوهٍ ومُوحِش. كانت هناك صفوفٌ طويلة من المنازل الكئيبة المبنيَّة بالطوب، ولم يكن يكسر كآبتها إلَّا الأضواء الساطعة والألوان المُبهرجة

للحانات الموجودة عند ناصية الشارع. تلَتْها صفوف من الفيلَّات ذات الطابقَين، أمام كلٍّ منها حديقةٌ صغيرة، ثم صفوفٌ مُمتدَّة من المباني الجديدة المبنيَّة من الطوب وقفَتْ مُحدِقة مثل المخالب الضخمة التي يمدُّها وحشُ المدينة إلى الريف. وأخيرًا توقَّفَت العربة أمام ثالث منزلٍ في صفٍّ جديد من المنازل. لم يكن أيٌّ من المنازل الأخرى المجاورة آهلًا، وكان المنزل الذي توقَّفنا أمامه مُظلِمًا مثل المنازل المُجاورة له إلَّا من ضوءٍ مُنبعث من نافذة المطبخ. لكن عندما طرقنا الباب، فتَحَه على الفور خادمٌ هندوسي يرتدي عمامةً صفراء، وثوبًا أبيضَ فضفاضًا، ووشاحًا أصفرَ على خَصره. كان ثمَّة شيء من التناقُض الغريب في منظر هذا الشخص الشرقي وهو يقِف على مدخل بابٍ عاديٍّ لمنزلٍ سكني من الدرجة الثالثة في الضواحي.

قال: «الصاحِب ينتظركم.» وأثناء كلامه صاح صوتٌ حادٌّ مرتفع من إحدى الغرف الداخلية قائلًا: «أدخِلْهم إليَّ أيُّها الخادم، أدخلهم إليَّ على الفور.»

الفصل الرابع

قصة ذي الرأس الأصلَع

تبِعْنا الهنديَّ في ممرٍّ قذِرٍ مُتواضع، إضاءته رديئة وأثاثه أردأ، حتى وصلْنا إلى بابٍ عن يمينِنا، ففتحَه. غمَرَنا وهَجٌ من الضوء الأصفر، وفي وسط ذلك الوهَج وقفَ رجل ضئيل الجسم رأسه مُدبَّبٌ جدًّا، يُحيطُه من الجانبَين شَعرٌ أحمر خشِنٌ، وفي مُنتصفه بدا جِلد رأسه الأصلع اللامع كقمَّةِ جبلٍ تبرُز وسط أشجار التنوب. أطبقَ يدَيه معًا وهو واقِف، وكانت تعبيرات وجهه تتبدَّل باستمرار، فتارةً يبتسِم وتارةً يتجهَّم، ولكنها لم تسترخِ للحظة. منحَتْه الطبيعة شفاهًا مُتدلِّيةً وصفًّا من الأسنان الصفراء غير المُستوية البارزة، التي كان يسعى بشدَّة لإخفائها بتمرير يدَيه على الجزء السُّفلي من وجهِه باستمرار. وعلى الرغم من صلَعِه الواضح، كان مظهرُه يُوحي بصِغَر سنِّه. وفي الواقع، كان قد أتمَّ عامَهُ الثلاثين للتوِّ.

ظلَّ يُكرِّر بصوتٍ حادٍّ مرتفع: «في خِدمتكِ يا آنسة مورستان، وفي خدمَتِكما أيُّها السيدان. تفضلوا بالدخول إلى صومَعتي المُتواضِعة. إنه مكانٌ صغير يا آنستي ولكنه مؤثَّثٌ على ذَوقي، إنه بمثابة واحةٍ للفنِّ وسط صحراء جنوب لندن المُقفِرة.»

ذُهِلنا جميعًا من مظهر الشقَّة التي دعانا للدُّخول إليها؛ ففي هذا المنزل المُتواضع، كانت تبدو في غير موضِعها كألماسةٍ من أجود الأنواع وُضِعَت داخل إطار من النحاس، تدلَّت من جُدرانها أَقْيَمُ أنواع الستائر والمنسوجات الجدارية، وأكثرُها بهرجة، والتي انحسرتْ في بعض المواضع لتظهَرَ وراءها لوحةٌ فنيةٌ مُعلَّقة بأناقةٍ أو مزهريَّةٌ شرقية. كان لون السجادة كهرمانيًّا في أسود، وكانت ناعمةً وكثيفةً لدرجة أنَّ قَدَم المرء تغُوص فيها بلُطف وكأنها تغُوص في رُقعةٍ من الطحالب. زاد وجود قطعتَين من جلد النَّمِر كانتا مفروشتَين بعرْض الغرفة، وكذلك النارجيلة الكبيرة التي كانت موضوعةً فوق بساطٍ في

ركن الغرفة، من طابعها الشرقي المُترَف. كان ثمَّة مصباح على شكل حمامةٍ فضيَّة يتدلَّى من حبلٍ ذهبيٍّ يكاد يكون غيرَ مرئيٍّ في منتصف الغرفة. ومع توهُّجه كان ينشُر في الهواء رائحةً عطرية نفَّاذة.

قال الرجل الضئيل الحجم وهو لا يزال يتململ ويبتسِم: «السيد ثاديوس شولتو، هذا هو اسمي، وأنتِ الآنسة مورستان بالطبع. وهذان السيدان هما ...»

«هذا السيد شيرلوك هولمز، وهذا الدكتور واطسون.»

صاح بحماسٍ كبير: «دكتور، حسنًا! هل معك سمَّاعتك الطبية؟ هل يُمكن أن أطلُب منك ... هلا تفضَّلتَ بالكشْف عليَّ؟ أنا قلقٌ جدًّا على سلامة صِمامي التاجي، هلَّا تكرَّمتَ بالكشف عليَّ؟ أنا لست قلقًا بشأن الصِّمام الأورطي، إنما سأكون مُمتنًّا لسماع رأيك بخصوص الصِّمام التاجي.»

استمعتُ إلى قلبه كما طلَبَ منِّي، ولكنِّي لم أجد أيَّةَ علَّةٍ به، باستثناء أنه كان يمرُّ بأقصى درجات الخَوف، فقد كان يرتجِف من رأسه حتى أخمص قدمَيه. قلت: «يبدو طبيعيًّا؛ لا داعي للقلق.»

قال مُعلقًا برِقَّة: «اعذري توتُّري يا آنسة مورستان؛ فأنا شخص معتلُّ الصحَّة، وتُراودني شكوك منذ مدةٍ طويلة بشأن ذلك الصمام، ويُسعِدني أن أعرف أنها غير مُبرَّرة. فلو كان والدك يا آنسة مورستان كفَّ عن تعريض قلبِهِ للإجهاد، لكان من المُمكن أن يبقى على قيد الحياة الآن.»

كدتُ أصفَع وجهه؛ فقد أثارت ملاحظتُه القاسية والعفوية لهذا الموضوع الحسَّاس حنقي الشديد. جلسَتِ الآنسة مورستان وقد امتُقع وجهها بالكامل وصار أبيضَ اللون، وقالت: «كنتُ أشعُر في قرارة نفسي أنه مات.»

قال: «يُمكنني أن أُطلِعَك على كلِّ ما يخصُّ الأمر من تفاصيل، بل ويُمكنني أن أرُدَّ لك حقَّك، وهذا ما أنوي فِعلَه بصرف النظر عمَّا قد يقوله أخي بارثلوميو. أنا سعيد للغاية بقدوم صديقَيك إلى هنا، ليس لمُرافقتِك فحسْب، بل ليشهدا أيضًا على ما أنا بصدَد قولِه وفِعله. فثلاثتُنا يمكن أن نُشكِّل جبهة مُعارضةٍ قوية أمام أخي بارثلوميو. لكن دَعُونا لا نُقحِم أحدًا بيننا، لا الشرطة ولا السلطات الرسمية؛ فيُمكِنُنا أن نسوِّي الأمور بيننا بطريقةٍ مُرضية دون أي تدخُّلات. فلن يُضايق أخي بارثلوميو شيءٌ أكثر من التشهير.»
جلس على أريكةٍ مُنخفضة ونظر إلينا وهو يطرُف بعينَيه الزرقاوَين الواهِنتَين المُترقرِقتَين بتساؤل.

قال هولمز: «بالنسبة إليَّ، سيَظلُّ كلُّ ما تقرَّر أن تقوله لنا سرًّا بيننا.»

أومأتُ برأسي لأُبدي مُوافقتي.

قال: «هذا جيِّد! هذا جيِّد! هل ترغبين في كأس من نبيذ شيانتي يا آنسة مورستان؟ أو من نبيذ توكاي؟ ليس لديَّ أي أنواعٍ أخرى من النبيذ، هل أفتح زجاجة؟ لا! حسنًا إذن، آمُل ألَّا تُمانعي دخان التبغ، أعني تلك الرائحة المُهدِّئة الخفيفة لدُخان التبغ الشرقي؛ فأنا مُتوتِّر قليلًا، وأجد في نرجيلتي مُهدِّئًا فعَّالًا.» أشعَلَ إناء النرجيلة الكبير وامتزج الدُّخان بماء الورد بسلاسة مُحدِثًا فُقاعات. جلس ثلاثَتُنا مُكوِّنين نِصف دائرة وقد مدَّ كلٌّ منَّا رأسه للأمام وأسند ذقنَهُ على يدَيه، بينما جلس الرجل الضئيل الحجم، ذو الرأس المُدبَّب اللامع وتعبيرات الوجه المُتغيِّرة، ينفُث دخان نرجيلته بتوتُّرٍ في الوسط.

تحدَّث الرجل قائلًا: «عندما أخذتُ قراري في البداية بأن أراسِلَك، كان من المُمكن أن أعطيكِ عنواني، لكنِّي خشيتُ أن تتجاهلي طلبي وتُحضري معك أشخاصًا أفظاظًا؛ لذا سمحتُ لنفسي بأن أُرتِّب ذلك اللقاء بطريقةٍ تسمح لمُساعدي ويليامز بأن يراكُم أوَّلًا؛ فأنا أثِقُ تمامًا في تكتُّمه، وأعطيتُه أوامري بألَّا يستمرَّ في تنفيذ الخطَّة إذا وجَدَ ما لا يُرضيه. اعذُروني على هذه الاحتياطات، لكنِّي رجل أحبُّ العُزلة، وذَوقي رفيع إلى حدٍّ ما، وليس هناك ما يُزعِجني أكثر من وجود رجال الشرطة؛ فأنا لديَّ نفورٌ طبيعي من كلِّ صُوَر المادية الخَشِنة، ونادرًا ما أختلِط بالحشود الفظَّة. أنا أعيش كما ترَون وسط جوٍّ من الرُّقي، وأعتبِر نفسي راعيًا للفنون؛ فهي نُقطة ضَعفي. هذا المنظر الطبيعي هو لوحةٌ أصلية لكورو، ومع أنَّ خبيرًا قد يُشكِّك في أصالة لوحة سلفاتور روزا هذه، فإنه لا غُبار على لوحة بوجيرو تلك. فأنا من المُتحيِّزين للمدرسة الفرنسية المُعاصرة.»

قالت الآنسة مورستان: «عذرًا يا سيد شولتو ولكنِّي قد جئتُ إلى هنا بناءً على طلبك لأسمع ما تُريد إخباري به. والوقت مُتأخِّر جدًّا وأنا أريد أن تكون تلك المُقابلة أقصرَ ما يُمكن.»

ردَّ قائلًا: «ستستغرِق بعض الوقت على أقلِّ تقدير، لأنَّنا سنحتاج بالتأكيد للذهاب إلى نوروود لمُقابلة أخي بارثلوميو. يجِب أن نذهب جميعًا ونرى إن كان بإمكاننا التغلُّب عليه. إنه غاضب جدًّا منِّي لأني سلكتُ الطريق الذي رأيتُه صحيحًا؛ وقد تشاجرتُ معه ليلة أمس. لا تتخيَّلون كم يَصير شخصًا مُريعًا عندما يكون غاضبًا!»

تجرَّأتُ وقلت: «إذا كنَّا سنذهب إلى نوروود، فمِن الأفضل أن ننطلِق على الفور.»

انفجر ضاحكًا حتى احمرَّت أذُناه، وصاح: «لن ينفع ذلك، لا أعلم ما سيقول إنْ أحضرتُكم بتلك الطريقة المُباغِتة. لا، يجِب أن أُحضِّرَكم أولًا بإطلاعكم على موقف كلٍّ منَّا بالنسبة إلى الآخر. أولًا يجِب أن أُخبركم أن ثَمَّة بعض النقاط المُبهَمة في القصة بالنسبة إليَّ. ما أستطيع فِعله هو سرْد الحقائق عليكم كما أعرفها.

إن أبي هو الرائد جون شولتو كما خمَّنتُم بالطبع، وهو أحد ضباط الجيش السابقين في الهند. تقاعَدَ منذ ما يقرُب من أحد عشر عامًا، ثم أتي ليستقرَّ في منزل بونديتشيري لودج في أبر نوروود. كان قد جمع ثروةً طائلة في الهند، وعاد ومعه مبلغٌ ضخم من المال، ومجموعةٌ كبيرة من التُّحَف القيِّمة وطاقم خدَم من السكان المحليِّين. وبهذه المزايا اشترى لنفسه منزلًا وعاش في ترفٍ كبير. كنتُ أنا وتوأمي بارثلوميو ذُرِّيَّته الوحيدة.

أتذكَّر تأثُّره البالِغ باختفاء النقيب مورستان. لقد قرأنا التفاصيل في الصُّحف، ولأنَّنا نعلم أنه كان أحد أصدقاء والِدِنا؛ ناقشْنا القضية بحُريَّةٍ في وجوده. كان يشترِك معنا في تكهُّناتنا بشأن ما حدَث، ولم نشكَّ للحظة أنه يكتُم السرَّ بأكمله بداخله، وأنه دُونًا عن الجميع يعرف مصير آرثر مورستان.

لكنَّنا، مع ذلك كنَّا نعلم أن لُغزًا ما، وخطرًا مؤكدًا يُحيط بوالِدِنا؛ فقد كان يخشى جدًّا الخروج بمُفردِه، وكان يُعيِّن دائمًا مُلاكِمَين مُحترفَين حرَّاسًا بمنزل بونديتشيري لودج. وكان ويليامز الذي أحضركُما إلى هنا الليلة واحدًا من هذَين؛ فقد كان في وقتٍ سابق بطلَ إنجلترا في الوزن الخفيف. لم يُفصِح لنا أبونا أبدًا عمَّا كان يُخيفه، لكن كانت لدَيه كراهيةٌ شديدة للرجال ذوي الأرجل الخشبيَّة. ففي إحدى المرَّات أطلق النار بالفعل على رَجُلٍ ذي رِجْلٍ خشبية اتَّضح فيما بعدُ أنه تاجرٌ غير مُؤذٍ يجمع الطلَبات، واضطُرِرنا إلى دفع مبلغٍ كبير من المال للتكتُّم على الأمر. اعتقدتُ أنا وأخي أن تلك مُجرَّد نزوةٍ عابرة لأبي، ولكن دفعَتْنا الأحداث لتغيير وجهة نظرِنا هذه.

في مطلع عام ١٨٨٢، تلقَّى أبي خطابًا من الهند كان بمثابة صدمةٍ كبيرة بالنسبة إليه. كاد يفقد وعيَهُ على طاولة الإفطار عندما فتحَه، ومنذ هذا اليوم مرِض حتى وافته المنيَّة. لم نكتشِف أبدًا فحوى الخطاب، لكنِّي استطعتُ أن أرى وهو يُمسكه أنه كان مُقتضبًا ومكتوبًا بخطٍّ رديء. لقد ظلَّ لسنواتٍ يُعاني من تضخُّم الطحال، لكن حالته تدهورَتْ بسرعة حِينها، وفي نهاية شهر أبريل علِمْنا أنه لا أمل من شفائه، وأنه يريد أن يتحدَّث معنا للمرة الأخيرة.

وعندما دخلنا غرفته كان يجلس مستندًا إلى وسائد ويتنفَّس بصعوبة. طلَبَ منَّا أن نُوصِد الباب ونجلس على جانبَي فِراشِه. ثمَّ أمسك بيدَينا وقال كلامًا صادمًا بصوتٍ خرج مُتهدِّجًا من التأثُّر والألم على حدٍّ سواء. سأحاول أن أُعيد عليكم ما قاله بنفس كلماته.

قال لنا: «يُوجَد أمرٌ واحد يشغل ذِهني في هذه اللحظة المُهمَّة، وهو طريقة تعامُلي مع ابنة مورستان المسكينة اليتيمة؛ فقد حال جشَعي اللَّعين، الذي كان خطيئتي التي لازمتْني طوال حياتي، بينها وبين حصولها على الكنز الذي لها أحقيَّةٌ في نِصفه على الأقل، ومع ذلك لم أستفِدْ منه أنا نفسي؛ فالجشع حقًّا أعمى وغبي. إحساس التملُّك في حدِّ ذاته كان عزيزًا عليَّ لدرجة أني لم أتحمَّل فكرة مُشاركته مع شخصٍ آخر. أترَيان هذا الإكليل المُرصَّع باللآلئ بجوار قنينة الكينين؛ حتى هذا لم أتحمَّل فراقَه، مع أني أخرجتُه بنيَّة إرساله إليها. أنتما يا بَنِيَّ ستُعطيانها حصَّتَها العادلة من كنز مدينة أجرا. ولكن لا تُرسلوا لها أيَّ شيء — حتى ذلك الإكليل — إلَّا بعد وفاتي؛ فعلى كلِّ حال، هناك رجال كان حالُهم على هذه الدرجة من السوء وتعافَوا.»

وأردف قائلًا: «سأخبرُكم الآن كيف مات مورستان. لقد كان يُعاني منذ سنوات من ضَعفٍ في قلبه، لكنه أخفى ذلك عن الجميع، وأنا وحدي كنتُ أعرف. وعندما كنَّا في الهند، وقع في حوزتِنا أنا وهو، عقبَ سلسلةٍ من الأحداث غير العادية، كنزٌ ضخم، أحضرتُه معي إلى إنجلترا. وليلة وصول مورستان، أتى إليَّ على الفور ليُطالِب بحصَّتِه. لقد سار من المحطَّة إلى هنا، وأدخلَهُ خادمي المُخلص لال شاودر، وهو الآن قد مات. اختلفْنا أنا ومورستان في الرأي بشأن حصَّة كلٍّ منَّا في الكنز، واحتدَّت بيننا المُناقشة؛ هبَّ مورستان واقفًا من كُرسيِّه في نوبة غضب، وفجأة ضغط بيدَهِ على جنبِه، واسودَّ وجهه، ثم سقط للخلف وجُرِح رأسه من ارتطامه بحافة صندوق الكنز. وعندما مِلتُ عليه، فزعتُ لأني وجدتُهُ ميتًا.

جلستُ لفترةٍ طويلة مُشوَّش الذهن تمامًا، أتساءل عمَّا يجِب أن أفعله. أول ما خطر ببالي بالطبع هو أن أطلُب المساعدة، لكنِّي لم أستطِع تجنُّب فكرة أنَّ احتمالات اتِّهامي بقتله كبيرة؛ فوفاته في أثناء الشجار، والجُرح الذي في رأسه سيؤخَذان ضدِّي. كذلك لا يمكن فتح تحقيقٍ رسمي دون انكشاف بعض الحقائق عن الكنز، الذي كنتُ حريصًا جدًّا على إبقائه سرًا. لقد أخبرَني أنه لا يعرف أحدٌ على وجه الأرض شيئًا عن وجهته، وأنا لم أرَ داعيًا لأن يعرف أحدٌ أبدًا.

وكنت لا أزال أُقلِّب الموضوع في رأسي عندما نظرتُ لأعلى، فرأيتُ خادمي لال شاودر واقفًا في مدخل الباب. دلَفَ إلى الداخل وأقفل الباب وراءه وقال: «لا تخَفْ يا صاحب، لن يعرف أحدٌ أنك قتلتَه. لنُخبِّئ جثَّتَه ولن يعرِف أحد.» قلت: «أنا لم أقتُلْه.» هزَّ لال شاودر رأسه وابتَسَم قائلًا: «لقد سمعتُ كلَّ شيء يا صاحب؛ سمِعتُكما تتشاجران وسمعتُ الضربة. لكنِّي لن أُخبِر أحدًا، فجميع مَن في البيت نائمون. لنتخلَّصْ منه معًا.» كان هذا كافيًا لأخذ قراري؛ فإذا كان خادمي نفسُه لا يُصدِّق براءتي، فكيف سأنجح في إقناع اثني عشر من التجار الحمقى على منصَّة هيئة المُحلَّفين؟ تخلَّصتُ أنا ولال شاودر من الجثَّة تلك الليلة، وفي غضون بضعة أيَّام امتلأتْ صُحُف لندن بخَبَر الاختفاء الغامض للنقيب مورستان. وسترَيان ممَّا سردتُه عليكما أني بالكاد أُلام على وفاته. الخطأ الذي أُلام عليه حقًّا هو إخفاء الجُثَّة واحتفاظي بنصيب مورستان ونصيبي. أريد منكما أن ترُدَّا الحقَّ إلى صاحبته. قرِّبا أُذنَيكُما من فمي، الكنز مُخبَّأ في ...» وفي تلك اللحظة، ظهر تعبير مُريع على وجهه، فقد اتَّسعتْ عيناه عن آخِرهما وتدلَّى فكُّه، وصرخ بصوتٍ لن ينمحي أبدًا من ذاكرتي: «أبقِياه خارجًا! بحقِّ المسيح، لا تسمحا له بالدُّخول!» نظر كلانا إلى النافذة التي كان نظره مُثبَّتًا عليها خلفَنا. كان ثمَّة وجهٍ ينظُر إلينا وسط الظلام. استطعْنا رؤية الأثر الأبيض الذي تركَهُ أنفُه في المكان الذي أسندَه فيه إلى الزجاج. كان وجهًا مُلتحيًا، كثيف الشَّعر، عيناه قاسيتان وارتسمَتْ عليه ملامح الحِقد الشديد. اندفعتُ أنا وأخي تجاه النافذة لكنَّ الرجل كان قد اختفى. وعندما عُدْنا إلى والِدِنا كان رأسُه مُتدلِّيًا ونبضُه مُتوقِّفًا.

فتَّشْنا الحديقة تلك الليلة ولكنَّنا لم نجد أي أثر لذلك الدخيل، باستثناء بصمةِ قدمٍ واحدة ظهرت في حوض الأزهار. ولولا ذلك الأثر لكُنَّا ظننَّا أن الوجه القاسي العنيف من نسج مُخيِّلتنا. لكنَّنا سرعان ما حصلنا على دليلٍ دامغٍ على أنَّ ثمَّة جهاتٍ سرِّيةً تحُوم حولنا؛ فقد وجدنا نافذة غرفة أبي مفتوحةً في صباح اليوم التالي، ودواليبه وصناديقه مُفتَّشة، ووجدنا فوق صدره ورقةً مُمزَّقة مكتوبًا عليها «علامة الأربعة». لم نعرف مُطلقًا معنى هذه العبارة ولا هوية الزائر السري. وعلى حدِّ عِلمنا، لم يُسرَق أيٌّ من مُمتلكات أبي، على الرغم من أن كل شيء كان مقلوبًا رأسًا على عقب. وبطبيعة الحال، ربطْنا أنا وأخي بين هذا الحادث الغريب والخوف الذي طارد أبي طوال حياته، ولكنَّهُ ظلَّ لغزًا بالنسبة إلينا.»

وتوقَّف الرجل الضئيل الحجم ليُعيد إشعال نرجيلته، ثم نفَث دخانها وهو مُستغرق في التفكير لبضع لحظات. كنَّا جالسين جميعًا بانتباه، نستمع لروايته العجيبة. وفي أثناء الجزء القصير من روايته الذي أتى فيه على ذِكر وفاة والِدِها، شحَب لون الآنسة مورستان بشدَّة، ولوهلةٍ خشيتُ أن تفقِد وعيَها. ولكنها تعافَتْ بعد شُرب كوب من الماء صببتُه بهدوء لها من إبريق من مدينة البندقية كان يُوجَد على الطاولة الجانبية. رجع شيرلوك هولمز إلى الوراء في كُرسيِّه شارد الذِّهن وجفناه مُرتخيان على عينَيه اللامِعتَين. وتذكرتُ وأنا أتطلَّع إليه كيف كان يشتكي بمرارة في هذا اليوم بالتحديد من أنَّ الحياة عادية. هذه على الأقل مشكلةٌ كفيلة باستنفاد قُدراته العقلية لأقصى حدٍّ ممكن. نقَّل السيد ثاديوس شولتو نظرَه من أحدِنا للآخر، وكان يبدو عليه الزهو بوقع قصته علينا، ثم تابَعَ من بين نفثات غليونه الضخم قائلًا: «كما تتصوَّرون، كنتُ وأخي مُتحمِّسَين جدًّا بخصوص الكنز الذي حدثنا عنه أبي، وظللنا لأسابيع وشهور نحفُر ونُنقِّب عنه في كل جزء من الحديقة لكننا لم نكتشف مكانه. كان التفكير في أن مكان إخفائه كان على طرف لسانه لحظةَ وفاتِهِ يُثير السُّخط. كان بإمكاننا تقدير مدى روعة الثروات المفقودة من الإكليل الذي كان قد أخرَجَه منها. أجريتُ أنا وأخي بارثلوميو نقاشًا صغيرًا حول ذلك الإكليل. كان من الواضح أن اللآلئ قيِّمةٌ جدًّا، وكان مُعترضًا على التخلِّي عنها، فهو — بيني وبينكم — كان يُعاني شيئًا من علَّة أبي؛ فقد كان يعتقد هو أيضًا أنه إذا تخلَّينا عن هذا الإكليل، فقد يُثير هذا الشائعات ويورِّطنا في النهاية في المشاكل. كل ما استطعتُ فِعله هو إقناعه بأن يَدَعْني أستدلُّ على عنوان الآنسة مورستان وأرسل لها لؤلؤة من الإكليل على فتراتٍ زمنيةٍ ثابتة، حتى لا تشعُر أبدًا بالعَوز على الأقل.»

قالت رفيقتُنا بصدق: «لقد كانت فكرةً لطيفة؛ فقد كانت بالفعل لفتةً طيبة للغاية منك.»

أشاح الرجل الضئيل الحجم بيدِه مُعترضًا، وقال: «لقد كنَّا أوصياء على نصيبك، هكذا كنتُ أنظر أنا إلى الأمر، لكن أخي بارثلوميو لم يكن يراه كذلك إطلاقًا. فقد كان لدَينا قدرٌ كافٍ من المال، ولم أطمع في المزيد. علاوة على أنها ستكون قلَّةَ ذَوق منِّي أن أعامل سيدةً شابَّة بهذه الطريقة المُتدنِّية. فكما يقول الفرنسيُّون: «قلَّة الذَّوق تؤدِّي إلى الجريمة.» إن لدَيهم طرقًا رائعة للغاية للتعبير عن تلك الأمور. اختلفْنا بشدَّة في الرأي حول ذلك الأمر لدرجة أني رأيتُ أنه من الأفضل أن أستقلَّ في مكانٍ خاصٍّ بي؛ لذا تركتُ بوندتشيري لودج مُصطحبًا معي خادمي الهندي العجوز وويليامز. لكني عرفتُ يوم

أمس بوقوع حدثٍ جلَل، وهو اكتشاف الكنز. راسلتُ الآنسة مورستان على الفور وكل ما تبقَّى أن نفعله هو أن ننطلِق إلى نوروود لنطالب بحصَّتنا. شرحتُ وجهة نظري أمس لأخي بارثلوميو؛ لذا فهو يتوقَّع زيارتنا وإن كان لا يُرحِّب بها.»

توقف السيد ثاديوس شولتو عن الحديث وجلس يتململ على أريكته الفخمة، وظللْنا جميعًا صامِتِين، نفكر في هذا التطوُّر الجديد في وقائع هذا الأمر الغامض. وكان هولمز أول من هبَّ واقفًا.

قال: «أحسنتَ صنعًا من البداية للنهاية يا سيدي. قد نستطيع ردَّ جزء من جميلك بتسليط بعض الضوء على الأمور التي لا تزال غامضة بالنسبة إليك. لكن كما أوضحَتِ الآنسة مورستان، فالوقت مُتأخِّر ومن الأفضل أن نُنجِز هذا الأمر دون تأخير.»

لفَّ رفيقُنا الجديد أنبوبَ نرجيلته بتأنٍّ بالغ، وأخرج من خلف ستارٍ معطفًا طويلًا بأزرارٍ مجدولة وله ياقة وأكمام من الفراء، وأغلق أزرار معطفه بعناية، ومع أن الليلة كانت تقترِب من نهايتها، استكمل زيَّه بارتداء قلنسوة من جِلد الأرنب لها طرَفان مُتدلِّيان يُغطِّيان أُذنَيه، فكان لا يظهر منه إلَّا وجهُه الشاحِب المُتغير التعبيرات. علَّق على هذا قائلًا وهو يقودُنا عبر المَمر: «إن صِحَّتي مُعتلَّة إلى حدٍّ ما؛ لذا فأنا مُضطر للمبالغة في الاهتمام بها.»

كانت عربتنا مُنتظِرة في الخارج، ويبدو أن خطَّ سيرنا كان مُعدًّا مسبقًا؛ فقد انطلق السائق على الفور بسرعة كبيرة. وكان ثاديوس شولتو يتحدَّث دون انقطاعٍ بصوتٍ يعلو على صوت صليل العجلات.

قال: «بارثلوميو رجلٌ ذكي، وإلَّا كيف استطاع اكتشاف مكان الكنز؟ لقد استنتج أنه لا بدَّ أن يكون مُخبَّأً داخل المنزل؛ لذا حسب مساحة المنزل المُكعَّبة وأخذ قياسات كلِّ جزءٍ منه بحيث لا يَغفُل عن بوصةٍ واحدة. وقد وجد، من ضمن ما وجد، أن ارتفاع المبنى أربعة وسبعون قدمًا، ولكن عند جمع ارتفاعات الغُرَف المُنفصلة، واحتساب مساحة التجويفات التي تأكد منها، لم يتعدَّ الناتج الإجمالي سبعين قدمًا. كان ثمَّة أربعة أقدامٍ إضافية لم تُحسَب ضِمن هذه المساحة. المكان الوحيد الذي يُمكن أن يُوجَد به الكنز هو الجزء العلوي من المبنى. وبالتالي أحدث فتحةً في السقف المصنوع من الألواح الخشبية والجبس بأعلى غرفة، وفوقه وجد بالتأكيد علِّيةً صغيرة، كانت مُغلَقة ولا يعلم أحدُ بوجودها. وفي وسطها وجد صندوق الكنز مُستقرًّا فوق عارضتَين خشبيَّتَين. أنزله عبر الفتحة، وهكذا حصل عليه. قدَّر قيمة المجوهرات بما لا يقلُّ عن نصف مليون جنيه إسترليني.»

عندما ذكر ذلك الرقم الضخم نظرْنا جميعًا إلى بعضِنا وقد اتَّسعت أعيُننا. فإذا استطعنا الحصول على حقِّ الآنسة مورستان، فإنها ستتحوَّل من مُربيةٍ فقيرة الحال إلى أغنى وريثة في إنجلترا. بالطبع من واجب أي صديقٍ وفيٍّ أن يبتهِج لسماع خبرٍ كهذا؛ لكنى أعترِف بخجلٍ أن الأنانية أعمَتْ رُوحي، ووقَر في قلبي حزنٌ شديد. تمتمتُ ببعض كلمات التهنئة المُتقطِّعة، ثم جلستُ مفطور القلب مُطأطئ الرأس، لا أسمع شيئًا من ثرثرة صديقِنا الجديد. من المؤكد أنه كان مُصابًا بوسواس المرَض، وكنتُ بالكاد أسمعه وأنا شارد يسرد مجموعةً لا مُتناهيةً من الأعراض، ويطلب معلوماتٍ عن تركيبة ومفعول عددٍ كبير من العقاقير المغشوشة، كان يحمل بعضها معه داخل حقيبةٍ جلدية في جَيبه. أعتقد أنه قد لا يتذكَّر أيًّا من الإجابات التي أعطيتُه إيَّاها تلك الليلة؛ فهولمز يقول إنه سمِعَني أُحذِّره من تناول أكثر من نقطتَين من زيت الخروع، بينما نصحتُه بتناول جرعاتٍ كبيرة من الاستِركْنين كمُهدِّئ. على كل حال، شعرت بالراحة عندما توقفَتْ عربتنا بغتة، ونزل السائق ليفتح لنا الباب.

قال السيد ثاديوس شولتو وهو يساعدها على النزول: «هذا هو منزل بونديتشيري لودج يا آنسة مورستان.»

الفصل الخامس

مأساة بونديتشيري لودج

كانت الساعة تقترِب من الحادية عشرة عندما وصلنا إلى المحطة الأخيرة من مُغامرتنا لهذه الليلة. تركنا خلفَنا ضباب المدينة المعبَّأ بالرطوبة، وكان الجوُّ جميلًا وصافيًا في تلك الليلة. هبَّت رياحٌ دافئة من جهة الغرب، وتحرَّكت السُّحب الكثيفة ببطءٍ في السماء، وكان جزء من القمر يسترِق النظر من بينها أحيانًا. كانت الرؤية واضحة أمامنا لمسافةٍ كبيرة، لكن ثاديوس شولتو أخذ أحد المصابيح الجانبية للعربة كي يُنير لنا الطريق على نحوٍ أفضل.

وقف منزل بونديتشيري لودج شامخًا وسط الأراضي المُحيطة به، يُحيط به سورٌ حجريٌّ شديد الارتفاع، في قمَّتِهِ نُثِر زجاج مكسور. كانت الوسيلة الوحيدة للدخول هي عبر بابٍ واحد ضَيِّق له دعاماتٌ حديدية. طرَقَه مُرشدنا بطريقةٍ مميزة تُشبِهُ طرقة ساعي البريد.

صاح صوت أجشُّ من الداخل: «من بالباب؟»

«هذا أنا يا مكموردو. لا بدَّ أنك صرتَ تستطيع تمييز طرْقَتي الآن.»

سمِعنا صوت تبرُّمٍ ثُم صوت خشخشة وصرير المفاتيح. فُتِح الباب ببطء، وظهر في مدخله رجلٌ قصيرٌ عريض المنكبين، وسطع الضوء الأصفر للمصباح على وجهه ذي الملامح البارزة وعينَيه اللامِعتَين المُرتابتَين.

«أهذا أنت يا سيد ثاديوس؟ لكن من هؤلاء؟ فلم ترِدْني أيةُ أوامر بشأنهم من سيدي.»

«حقًّا يا مكموردو؟ أنت تُفاجئني! لقد أخبرتُ أخي أمس أنني سأحضر معي بعض الأصدقاء.»

«إنه لم يخرُج من غرفته اليوم يا سيد ثاديوس، وليس لديَّ أوامر. أنت تعلم جيدًا أني يجِب أن ألتزم بالتعليمات. يمكنني أن أسمح لك بالدخول ولكن أصدقاءك يجب أن يبقوا مكانهم.»

كانت تلك عقبة غير مُتوقَّعة. تلفَّتَ ثاديوس شولتو حوله بارتباكٍ وعجْز. قال: «تصرُّفك هذا غير لائق يا مكموردو! إذا كنتُ أنا أضمنُهم، فذلك يجِب أن يكون كافيًا بالنسبة إليك. ومعنا كذلك سيِّدةٌ شابَّة، لا يُمكنها أن تنتظِر في الطريق العام في مثل هذه الساعة المتأخِّرة.»

قال الحارس بإصرار: «أنا آسِف جدًّا يا سيد ثاديوس؛ فهم قد يكونون أصدقاءك، ولكنهم ليس بالضرورة أن يكونوا من أصدقاء سيِّدي. إنه يدفع لي أجرًا جيدًا مُقابل أن أؤدِّي عملي، فيجب عليَّ تأديتُه على أكمل وجه. ثُم إنني لا أعرف أحدًا من أصدقائك هؤلاء.»

صاح شيرلوك هولمز بلُطف: «بل تعرِف يا مكموردو، لا أظنُّ أنك قد نسيتَني. ألا تتذكَّر الهاوي الذي صارعَك لثلاثةِ أشواطٍ في نُزل أليسون في الليلة التي كنتَ تُصارع فيها منذ أربعة أعوام؟»

هتف المُلاكم: «السيد شيرلوك هولمز! يا إلهي! كيف لم أعرِفْك؟ إن كنتَ أتيتَ وضربتَني ضربتَك العكسية الشهيرةَ تحت الفكِّ عوضًا عن الوقوف بعيدًا في صمتٍ كنتُ سأعرفك دون شك. لقد أهدرتَ مواهبك حقًّا! كان يُمكن أن تستهدِفَ ما هو أعلى إن أردت.»

قال شيرلوك هولمز ضاحكًا: «أترى يا واطسون، إذا فشلتُ في كلِّ شيء آخر فلا يزال المجال أمامي مفتوحًا في إحدى المِهَن العِلمية. أنا مُتأكِّد من أن صديقَنا لن يترُكنا مُنتظرين في البرد الآن.»

أجاب: «تفضل بالدخول يا سيدي، أنت وأصدقاؤك. أنا آسِف جدًّا يا سيد ثاديوس، لكن الأوامر صارمة جدًّا. كان يجِب أن أتأكَّد من هوية أصدقائك قبل السماح لهم بالدخول.»

بالداخل وجدْنا ممرًّا مفروشًا بالحصى يمتدُّ عبر أراضٍ قفر إلى منزلٍ ضخمٍ مُربَّع، شكله غير مُميَّز، غارق كله في ظلامٍ دامس إلَّا جانبًا واحدًا يسطع عليه شعاع القمر وينعكس مُتلألئًا على إحدى نوافذ عُلِّيته. تسري في جسد المرء قشعريرة خَوف من حجم البيت الضخم، والظلام الذي يُخيِّم عليه والصمت المُطبق الموجود فيه. حتى ثاديوس شولتو بدا مُرتبكًا، وكان المصباح يرتجِفُ ويخشخش في يده.

قال: «أنا لا أفهم، يبدو أن ثمَّة خطبًا ما. لقد أخبرتُ بارثلوميو بوضوح أنَّنا سنأتي، ومع ذلك نافذة غُرفته مُظلمة. لا أعلم ماذا يعني هذا!»

سأله هولمز: «هل من عادته أن يُشدِّد الحراسة على المكان بهذه الطريقة؟»

«نعم؛ لقد حافظ على عادة أبي. لقد كان الابن المُفضَّل لأبي، وأحيانًا كنتُ أعتقد أن أبي يُخبره بأكثر ممَّا يُخبرني. تلك النافذة العلوية التي ينعكس عليها ضوء القمر هي نافذة غرفة بارثلوميو. تبدو ساطعةً لكني لا أعتقد أن الضوء قادِم من داخلها.»

قال هولمز: «هذا صحيح، لكني أرى بصيصًا من الضوء في تلك النافذة التي بجوار الباب.»

«آه، هذه غرفة مُدبِّرة المنزل. فهذه هي الغرفة التي تَسكُنها السيدة بيرنستون العجوز. يُمكنها أن تُخبرنا عن الأمر كله. لكن أرجو ألَّا تُمانعوا الانتظار هنا لبضع دقائق؛ فهي لا علم لها بقُدومنا، وقد تفزَع إذا دخلنا جميعًا معًا. لكن صه! ما هذا؟»

رفع المصباح وارتجفَتْ يدُه لدرجةِ أن دوائر الضوء حولنا كانت ترتعش وتتذبذب. أمسكتِ الآنسة مورستان بمِعصمي، ووقفْنا جميعًا ترجُف قلوبنا وتُصغي آذاننا. فمن داخل المنزل المُظلم الضخم، شقَّ سكون الليل أكثرُ الأصوات إثارة للحُزن والشفقة؛ صوت أنينٍ حادٍّ مُتهدِّج لامرأةٍ خائفة.

قال السيد شولتو: «إنها السيدة بيرنستون، فهي السيدة الوحيدة في المنزل، انتظروا هنا. سوف أعود سريعًا.» هُرِع إلى الباب وطرَقَه بطريقتِه المميزة. رأينا سيدةً عجوزًا طويلة تفتح له الباب وتُدخِله وتكاد تقفِزُ من السعادة لرؤيته.

سمعناها تُواصِل في سعادة تكرار عبارة: «سيد ثاديوس، أنا سعيدة جدًّا بقدومك! أنا سعيدة جدًّا بقدومك يا سيد ثاديوس!» إلى أن أُغلِق الباب وخفَتَ صوتُها حتى أصبح مجرَّد همهمةٍ مكتومة.

كان مرشدنا قد ترك لنا المصباح. حرَّكه هولمز ببطءٍ حوله ونظر بتمعُّن إلى المنزل، وإلى أكوام القمامة الكبيرة التي تملأ المكان. وقفتُ أنا والآنسة مورستان معًا، وقد وضعَت يدها بيدي. إن الحب أمرٌ مدهش وغير مفهوم؛ فها نحن ذان شَخصَين لم يرَ أحدنا الآخر قبل ذلك اليوم، ولم نتبادل أي كلماتٍ أو حتى نظراتِ إعجاب، ومع ذلك مدَّ كلٌّ منا يده للآخر دون تفكير في ذلك الوقت العصيب. منذ ذلك الحين وأنا أَتعجَّب من الأمر، لكني شعرتُ حينها أنه من البديهي تمامًا أن أمُدَّ يدي إليها، وكما أخبرتني هي أيضًا مرارًا أن حَدْسها في هذا الوقت قادها إلى اللجوء إليَّ طلبًا للطمأنينة والحماية. وهكذا وقفنا وقد تشابكَت أيدينا مثل الأطفال، وكان السلام في قلبَينا يطغى على الظلام المحيط بنا.

نَظَرَتْ حولها وقالت: «يا له من مكانٍ غريب!»

«يبدو وكأن جميع جرذان إنجلترا أُطلق سراحها هنا. رأيت منظرًا مشابهًا بجوار تلٍّ بالقرب من مدينة بالارات؛ حيث كان يعمل المنقِّبون.»

قال شيرلوك هولمز: «ولنفس السبب، فهذه آثارُ باحثِين عن الكنز. لا تنسَيا أنهما ظَلَّا ستة أعوام يبحثان عنه؛ فلا عجب إذن أن الأراضي تبدو مثل المَحجَر.»

في هذه اللحظة، فُتِح باب المنزل وخرج منه ثاديوس شولتو مُهروِلًا مادًّا يدَيه أمامه وفي عينَيه نظرةُ رعب.

صرخ قائلًا: «ثَمَّةَ خطبٌ ما في بارثلوميو! أنا خائف! أعصابي لا تتحمل ذلك.» وبالفعل بدا كأنه ينتحب من الخوف، وارتسمت على وجهه المتشنِّج الواهن الظاهر من ياقة مِعطَفه المكسوَّة بالفِراء ملامح الاستجداء العاجز لطفلٍ مرعوب.

قال هولمز بأسلوبه الحادِّ الصارم: «لِندخلْ إلى المنزل.»

قال ثاديوس شولتو بنبرةِ استجداء: «نعم، من فضلكم! فأنا لا أشعر بأني أهلٌ لإعطاء التعليمات.»

تبِعناه جميعًا إلى غرفة مدبِّرة المنزل التي كانت على الجانب الأيسر من الممر. كانت العجوز تجول جيئةً وذهابًا بنظرةِ رعبٍ على وجهها، وأصابعها تتحرك في اضطراب، ولكن بدا أن رؤيتها للآنسة مورستان كانت لها وقعٌ مريح عليها.

صاحت المرأة وسط بكاءٍ هستيري: «بارك الله وجهَكِ العذب الهادئ هذا! لقد ارتحتُ لرؤيتك؛ فقد عانيت كثيرًا اليوم!»

ربَّتَت رفيقتنا على يدها الرفيعة التي أنهكها العمل، وتمتمَت ببعضِ كلمات المواساة الأنثوية اللطيفة، فأعادت الدم إلى وجنتَيها الشاحبتَين.

قالت مُفسِّرة: «لقد أغلق سيدي الباب على نفسه ولا يجيب عليَّ. انتظرت طَوالَ اليوم أن يستدعيني؛ فهو يحب الجلوس بمفرده أحيانًا. لكن منذ ساعةٍ خشيتُ أن يكون قد أصابه مكروه؛ لذا صعِدتُ ونظرتُ من ثقب المفتاح. يجب أن تصعد يا سيد ثاديوس؛ يجب أن تصعد وترى بنفسك؛ فخلال عشر سنواتٍ طِوال، رأيت السيد بارثلوميو شولتو في فرحه وفي حزنه، لكني لم أرَ على وجهه أبدًا مثل ذلك التعبير.»

أخذ شيرلوك هولمز المصباح وقادنا هو؛ لأن السيد ثاديوس شولتو كان يرتعد خوفًا. كان مرتعبًا لدرجة أنني اضطُرِرتُ إلى وضع يدي تحت ذراعه أثناء صعودنا السلَّم، لأن ركبتَيه كانتا بالكاد تحملانه. وفي طريقنا للصعود، أخرج هولمز عدسته من جيبه مرتَين

وفحص بدقةٍ علاماتٍ بدت لي مجرد لطخاتٍ من التراب لا شكل لها على البساط البُنِّي اللون المفروش على الدرَج. انتقل ببطء من درجة إلى أخرى، حاملًا المصباح، وهو ينظر متفحِّصًا يمينًا ويسارًا. ظلت الآنسة مورستان تسير في الخلف مع مُدبِّرة المنزل الخائفة.

انتهت بنا درجات السلَّم إلى ممرٍّ طويلٍ مستقيم، على يمينه عُلِّقت منسوجةٌ جداريةٌ هندية عليها صورةٌ ضخمة، وعلى يساره ثلاثةُ أبواب. تقدَّم هولمز فيه بالطريقة المنهجية البطيئة نفسها، بينما تبِعناه عن قرب، وظلالنا السوداء الطويلة تتسلل خلفنا في الممر. كان الباب الثالث هو ما ننشُده. طرق هولمز الباب لكنه لم يتلقَّ إجابة، ثم أدار مِقبَض الباب وحاول فتحه عَنْوة، إلا أنه كان مغلقًا من الداخل بمزلاجٍ عريض وقوي، كما رأينا عندما قرَّبنا منه المصباح. كان المفتاح مُدارًا؛ لذا لم يكن ثقب المِفتاح مُغلقًا كليًّا. انحنى شيرلوك هولمز ينظر منه، وعلى الفور اعتدل واقفًا مُطلِقًا شهقةً حادة.

قال بتأثُّرٍ لم أَرَه عليه في حياتي: «هناك شيءٌ خبيث في هذا الأمر يا واطسون. ماذا تستنتج من ذلك؟»

انحنيتُ لأنظُر من الثقب ثم ارتددتُ للوراء برُعب. كان ضوء القمر يتدفَّق إلى داخل الغرفة، وكان يسطع بشعاعٍ غامض ومريب. كان يُحدِّق بي وجهٌ مُعلَّق في الهواء، كما بدا لي حينها؛ لأن الظلال كانت تُغطِّي كلَّ ما تحته؛ وَجهُ رفيقنا ثاديوس نفسه؛ فقد رأيتُ الرأس المحدَّب اللامع نفسه يحيط به الشعر الأحمر الخشِن نفسه، والملامح الشاحبة نفسها. إلا أن هذه الملامح كانت ترتسم عليها ابتسامةٌ مُريعة؛ ابتسامةٌ ثابتة وغير طبيعية، كانت تُثير الرعب تحت ضوء القمر الذي يُنير الغرفة أكثر من أيِّ عُبوس أو تشوُّه. كان الوجه يُشبه وجه رفيقنا الضئيل الحجم لدرجة أني التفتُّ إليه لأتأكد من أنه معنا. ثم تذكَّرتُ أنه ذكر لنا أنه وأخاه توأمان.

قلت لهولمز: «هذا مُريع! ماذا نفعل؟»

أجاب: «يجب أن نكسر الباب.» واندفع نحوه بأقصى قوَّته ليرتطم به؛ طقطق الباب وصرَّ، ولكنه لم يتزعزع. اندفعنا معًا نحوه مرةً أخرى، وهذه المرة انكسر فجأةً ووجدنا أنفسنا داخلَ غرفةِ بارثلوميو شولتو.

بدت أنها مُعدَّة للاستخدام كمعملٍ كيميائي؛ فقد رُصَّ صفَّان من القوارير ذات السدادات الزجاجية بجوار الحائط المقابل للباب، وكانت مواقدُ بَنزِن وأنابيب الاختبار وأوعية التقطير تملأ الطاولة. وفي الأركان كانت تُوجد زجاجاتُ حمضٍ موضوعة في سِلالٍ من الخوص. يبدو أن إحدى هذه الزجاجات كانت تُسرِّب أو كانت مكسورة؛ فقد انسال

منها سائلٌ داكن اللون وكان الهواء مُعبأً برائحة نفَّاذة جدًّا تشبه رائحة القطران. كانت ثَمَّةَ بِضعُ درجات سُلم في أحدِ جوانب الغرفة وسط كومةٍ من الألواح الخشبية والجبس وفوقها كانت ثَمَّةَ فتحة في السقف تتسع لمرورِ رجلٍ عبرها، وعند أسفل هذه الدرجات كان ثَمَّةَ لفةٌ كبيرة من الحبال ملقاة بإهمال.

بجوار الطاولة، كان صاحب المنزل ملقًى على كرسيٍّ خشبي بذراعَين، ورأسه يميل على كتفه الأيسر، وعلى وجهه تلك الابتسامة المريعة الغامضة. كان جسده مُتيبِّسًا وباردًا وكان من الواضح أنه فارق الحياة منذ عدةِ ساعات. بدا لي أن ملامحه لم تكن هي فحسب التي اتخذت شكلًا غريبًا بل جميع أطرافه كذلك. وبجوار يده على الطاولة كانت تُوجد أداةٌ غريبة؛ عصًا بُنِّيةٌ ملساءُ لها رأسٌ حجري مثل المطرقة، مربوطة بغير عناية بحبلٍ خشِن. وبجوارها كانت ورقةٌ مقطوعة من دفترِ ملاحظاتٍ مكتوب عليها بعض الكلمات. نظر إليها هولمز ثم ناولَني إياها.

قال وهو يرفع حاجبيه بشدة: «أترى؟»

قرأتُ في ضوء المصباح بذعر عبارة «علامة الأربعة».

تساءلت: «بحق الرب، ماذا يعني ذلك كله؟»

أجاب وهو ينحني فوق الرجل الميت: «يعني جريمة قتل! آه، لقد توقَّعت هذا؛ انظر هنا!» أشار إلى شيءٍ ما يشبه شوكةً طويلة داكنة اللون مغروسةً في جِلد الرجل فوق أذنه.

قلت: «تبدو مثل شوكة.»

«هي كذلك فعلًا، يمكنك التقاطها، لكن احذر فهي مُسمَّمة!»

أمسكتُها بسبَّابتي وإبهامي، فخرجَت من الجلد بسهولةٍ لدرجةِ أنها بالكاد تركت أثرًا، وظهرت نقطةُ دمٍ صغيرة مكان وَخْزَتها.

قلت: «كل ذلك يمثل لغزًا غامضًا بالنسبة إليَّ؛ فالأمر يزداد غموضًا وليس وضوحًا مع الوقت.»

أجاب: «بل على العكس، إنه يتضح أكثر في كلِّ لحظةٍ تمر. لا ينقصني غيرُ بضعةِ روابطَ وتتضح أمامي القضية بأكملها.»

نسينا تقريبًا وجود رفيقنا منذ أن دخلنا إلى الحجرة. كان لا يزال واقفًا بالباب، يعصر يدَيه وينتحب بصوتٍ منخفض وقد تجسَّد فيه الرعب. ولكن فجأةً صرخ صرخةً حادةً متحسرة وقال: «لقد اختفى الكنز! لقد سرقوا منه الكنز! هذه هي الفتحة التي

أنزلناه منها. أنا ساعدته في ذلك! كنتُ آخر من رآه! لقد تركتُه هنا مساء أمس وسمعتُه يوصِد الباب وأنا أهبِط الدرج.»

«كم كانت الساعة؟»

«كانت تمام العاشرة. والآن وقد فارق الحياة، ستأتي الشرطة، وسوف يشتبهون بأن لي يدًا في ذلك كلِّه. نعم، أنا متأكدٌ من ذلك. لكنكما بالتأكيد لا تعتقدان ذلك أيها السيدان؟ بالتأكيد أنتما لا تعتقدان أني الفاعل؟ فهل كنت سأُحضِركم إلى هنا إن كنت أنا الفاعل؟ يا إلهي! يا إلهي! أعتقد أني سأُجنُّ!» نفض ذراعَيه وضرب الأرض بقدمَيه في نوبةٍ من الاهتياج الشديد.

وضع هولمز يده على كتفه وقال بلطف: «لا داعي للقلق يا سيد شولتو، خذ بنصيحتي واذهب إلى الشرطة للإبلاغ عن هذا الأمر، وأبدِ استعدادك لتقديم أيةِ مساعدةٍ ممكنة. ونحن سوف ننتظر هنا حتى عودتك.»

أطاعه الرجل الضئيل الحجم وهو شبهُ مذهول، وسمِعناه يتخبط في الظلام وهو ينزل الدرَج.

الفصل السادس

شيرلوك هولمز يُقدِّم شرحًا

قال هولمز وهو يفرك كفَّيه: «والآن يا واطسون لدينا نصف ساعة بمفردنا. دعنا نستغلها جيدًا؛ فكما أخبرتك، القضية على وشكِ أن تكتمل، ولكن دعنا لا نرتكب خطأً بسبب الثقة الزائدة؛ فبِقدْرِ ما تبدو القضية بسيطة الآن، بقدرِ ما قد يكون وراءها أمرٌ أكثر تعقيدًا.»

صحتُ مندهشًا: «بسيطة!»

قال بأسلوبٍ يشبه أسلوبَ أستاذِ طبٍّ يشرح لصفٍّ دراسي: «بالطبع، فقط اجلس في ذلك الركن حتى لا تُعقِّد آثار أقدامك الأمر. والآن لنبدأ العمل! أولًا، كيف دخل هؤلاء الأشخاص وكيف خرجوا؟ فالباب لم يُفتَح منذ ليلة أمس، وماذا عن النافذة؟» حمل المصباح متَّجهًا إليها، وهو يتمتم بملاحظاته بصوتٍ مسموع، لكنه كان يُوجِّهها لنفسه وليس لي. «النافذة مغلقة بمزلاج من الداخل، وإطارها متين. ولا تُوجد مُفصَّلات جانبية، لنفتحها. لا تُوجد ماسورةُ مياهٍ بجوارها، والسطح لا يمكن الوصول إليه. ومع ذلك، دخل رجل عَبْر النافذة. لقد هَطلَت بعض الأمطار الخفيفة ليلة أمس، وهناك بصمةُ قدمٍ تظهر على عتبة النافذة، وهناك علامةٌ دائرية من الوحل، وتُوجد واحدةٌ أخرى هنا أيضًا على الأرض، وهنا بجوار الطاولة. أترى هذا يا واطسون؟! هذا حقًّا إثباتٌ قاطع.»

نظرتُ إلى الأقراص الدائرية من الوحل الظاهرة بوضوح، وقلت: «هذا ليس أَثَرَ قدم.»

«بل هو أمرٌ ذو قيمة أكبر من ذلك بالنسبة إلينا. إنه أَثَرُ ساقٍ خشبية. أترى هنا على عتبة النافذة يُوجد أثرُ حذاءٍ طويل الرقبة، وهو حذاءٌ ثقيل له كعبٌ معدنيٌّ عريض، وبجواره أثر القدم الخشبية.»

«إنه الرجل ذو الساق الخشبية.»

«هذا صحيح، لكن كان معه شخصٌ آخر؛ شريكٌ قوي وبارعٌ جدًّا. هل تستطيع تسلُّق ذلك الجدار يا دكتور؟»

نظرت من النافذة المفتوحة، وكان ضوء القمر لا يزال يسطع ببهاء على تلك الزاوية من المنزل. كنا على ارتفاع ستين قدمًا من الأرض، وبالنظر من مكاني، لم أستطع رؤية أي موطئ قدم، ولا حتى بحجم شق في الحائط المبني من الطوب.

أجبت: «هذا مستحيل بالتأكيد.»

«هو مستحيل دون مساعدة، لكن افترض أن لك صديقًا هنا بالأعلى رمى لك ذلك الحبل القوي الذي أراه في الركن، بعد أن ربط أحد طرفَيه في هذا الخطَّاف الكبير المُثبت في الحائط. أعتقد حينها أنك إن كنتَ رجلًا رياضيًّا، فقد تستطيع التسلُّق لأعلى، حتى إن كان لك ساقٌ خشبية. وستُغادر أيضًا بالطريقة نفسها بالطبع، ثم سيسحب شريكك الحبل ويفُكُّه من الخطَّاف ويغلق النافذة بالمزلاج من الداخل، ثم يهرب بالطريقة نفسها التي دخل بها.» استطرد وهو يتفحَّص الحبل بأصابعه: «هناك نقطةٌ صغيرة جديرة بالملاحظة، وهي أن صاحبنا ذا الرِّجل الخشبية، مع أنه متسلِّق جيد، لم يكن بحَّارًا محترفًا؛ فيده ليست خشِنة البتة؛ فعَدسَتي تُظهِر أكثر من علامةٍ دموية، خصوصًا بالقرب من نهاية الحبل، نتجت من انزلاقه بسرعةٍ كبيرة أدَّت إلى انتزاع الجلد من يدَيه.»

قلتُ: «هذا كله جيد، لكنه يجعل الأمور أكثر غموضًا من ذي قبل. ماذا عن ذلك الشريك الغامض؟ كيف دخل إلى الغرفة؟»

كرَّر هولمز مفكرًا: «نعم، الشريك! تُوجد بعض النقاط المثيرة للاهتمام بخصوص ذلك الشريك؛ فوجوده هو ما يُخرِج القضية عن طَورِ المألوف. وأظن أن ذلك الشريك يُسطِّر صفحاتٍ جديدة في تاريخ الجريمة بهذا البلد، مع أنه يحضُر في ذهني ملابساتُ قضايا مشابهة من الهند، وإذا لم تخُنِّي الذاكرة، من سينيجامبيا.»

كرَّرتُ: «كيف دخل إذن؟ فالباب مغلق، والنافذة لا يمكن الوصول إليها. هل أتى من المدخنة؟»

أجاب: «مَوقِد المِدْفأة صغيرٌ جدًّا. لقد فكرتُ في ذلك الاحتمال بالفعل.»

قلتُ بإصرار: «إذن كيف؟»

هزَّ رأسه وقال: «أنت لا تُطبِّق قاعدتي؛ فكم مرة أخبرتك أنه عندما تستبعد الاحتمالات المستحيلة، فما يتبقى لك، مهما بدا غير محتمل، لا بد أن يكون هو الحقيقة! نحن نعلم أنه لم يدخل من الباب، ولا من النافذة، ولا من المدخنة، ونعلم أيضًا أنه لم يكن مختبئًا في الغرفة، فلا يُوجد بها أيُّ مكان يمكن الاختباء فيه؛ إذن، من أين دخل؟»

صِحتُ: «دخل من الفَتْحة التي في السقف.»

«بالطبع، لا بُد أنه أتى منها. هلا تفضَّلتَ وحملتَ المصباح لي؛ فعلينا الآن أن نُوسِّع نطاق بحثنا ليشمل الغرفة العلوية؛ الغرفة السرية التي عُثِر بها على الكَنز.»

صعِد درجاتِ السلَّم، وأمسك بيدَيه عارضةً خشبية ورفع نفسه إلى العلِّيَّة، ثم رقد على بطنه ومدَّ يده ليأخذ المصباح وأمسك به، في حين تبِعتُه إليها.

كان اتساع الحجرة التي وَجَدنا أنفسنا بداخلها حوالي عشرة أقدامٍ من أحد الجوانب وستة أقدامٍ في الجانب الآخر. كانت أرضيتها مصنوعة من عوارضَ خشبيةٍ بينها طبقةٌ رقيقة من الشرائح الخشبية والجبس؛ لذا عند المشي فوقها يضطر المرء لأن يخطو من عارضة للأخرى. امتد السقف لأعلى في شكلٍ هرمي، وكان من الواضح أنه الهيكل الداخلي لسطح المنزل الفعلي. لم يكن بها أثاثٌ من أيِّ نوع، وكانت أرضيَّتها مغطاةً بطبقةٍ سميكة من الغبار الذي تراكَم على مرِّ السنوات.

قال شيرلوك هولمز مسندًا يده على حائط السقف المائل: «ها نحن ذا، أترى؟ هذا بابٌ أُفقي سحري يُؤدِّي إلى السطح. يُمكِن أن أدفعه وسنرى السطح نفسه، يميل بزاويةٍ بسيطة؛ تلك هي إذن الطريقة التي دخل بها الرجل الأوَّل. لِنرَ إن كان بإمكاننا العثور على دلائلَ أخرى على شخصيته.»

خفَض المصباح نحو الأرض، وبمجرد أن فعل، رأيت للمرة الثانية تلك الليلةَ على وجهه نظرةَ ذهولٍ ودهشة. أنا نفسي بمجرد أن أتبعتُ عيني موضع نظره اقشعرَّ بدني؛ فقد كانت الأرض مغطاةً بكثافة بآثارِ أقدامٍ حافية، كانت واضحةً ومحددةً ومكتملة التكوين لكن حجمها بالكاد نصفُ حجم قدم الرجل العادي.

قلتُ هامسًا: «هولمز، هل ارتكب طفل ذلك الفعل الشنيع؟»

استجمع رباطةَ جأشه في ثوانٍ وقال: «تَشوَّش ذهني لِوهلة، لكن الأمر طبيعي. لم تُسعِفني الذاكرة وإلا لكنتُ تنبأتُ بذلك. لم يعُد هناك ما يمكن اكتشافه هنا؛ هيا بنا لننزل.»

سألتُه بلهفة عندما عدنا إلى الغرفة السفلية مرةً أخرى: «ما نظريتُك إذن بخصوصِ آثار الأقدام تلك؟»

قال بأسلوب ينمُّ عن نفادِ الصبر: «عزيزي واطسون، جرِّب أن تقوم بالقليل من التحليل بنفسك؛ فأنت تعرف أساليبي؛ طبِّقها، وسيكون من المفيد مقارنة النتائج.»

أجبتُه: «لا أستطيع الوصول لأي استنتاجات من الحقائق.»

قال دون تفكير: «قريبًا ستتضح لك الأمور. أعتقد أنه لم يتبقَّ شيءٌ آخر له أهمية هنا، لكني سأُلقي نظرة على أيِّ حال.» أخرج عدستَه وشريطَ قياس، وانكبَّ على ركبتَيه يجول في الغرفة، يقيس، ويقارن، ويفحص، يكاد أنفه الطويل الرفيع يلامس الأرض، وعيناه المتفحِّصتان تلمعان وتضيقان كعيني طائر. كانت حركاتُه خفيفة وصامتة وخاطفة، كحركات كلبٍ بوليسي يقتفي أَثَر رائحةٍ ما، حتى إنني تخيَّلتُ كم كان سيصبح مجرمًا عتيًّا لو كان قد كرَّس طاقاته وقدراته الذهنية ضد القانون بدلًا من استخدامها للدفاع عنه. كان يُتمتِم لنفسه في أثناء بحثه، ثم أخيرًا انطلقَت منه صيحةُ فرحٍ عالية.

قال: «لقد حالفَنا الحظ بكل تأكيد؛ فقد أَوشكَت مشكلتنا أن تُحل. لقد داس الرجل الأوَّل لسوء حظه في مادة الكريوزوت. يمكنك أن ترى الخط الخارجي لقدمه الصغير هنا بجانب تلك الفوضى الكريهة الرائحة. لقد شُرِخت القنينة كما ترى وتسرَّب منها السائل.»

سألته: «وماذا في ذلك؟»

قال: «لقد أمسكنا به، هذا كلُّ ما في الأمر؛ فأنا أعرف كلبًا يمكنه أن يقتفي أثر تلك الرائحة حتى نهاية العالم، فإذا كان بإمكانِ قطيعٍ من كلاب الصيدِ أن يقتفي أثر سمكةِ رنجة لمقاطعةٍ كاملة، فما المسافة التي يمكن لكلبٍ تلقَّى تدريبًا خاصًّا أن يقطعها متتبِّعًا رائحةً نفاذة كتلك؟ تبدو لي كمسألةٍ تتطلب استخدام القاعدة الثلاثية. من المفترض أن تكون الإجابة … لكن أهلًا! ها قد وصل الممثلون الرسميون للقانون.»

سمعنا وَقْع خطواتٍ ثقيلة وضجيجَ أصواتٍ عاليًا قادمًا من الأسفل، وصُفِق باب الردهة مُحدِثًا دويًّا عاليًّا.

قال هولمز: «بسرعة قبل أن يصلوا إلى هنا، تحسَّس ذراع ذلك المسكين هنا ورجله هنا، بمَ تشعر؟»

أجبتُ: «العضلات متيبِّسة كلوحٍ خشبي.»

«هذا صحيح، إنها في حالة انقباضٍ شديد، يفوق تيبُّس الجثث المعتاد. أضف إلى ذلك التعبير الغريب المرسوم على الوجه؛ هذه الابتسامة المتشنِّجة، أو الضَّزَز السردوني كما أسماه الكُتاب القُدامى، ما الاستنتاج الذي يتبادر إلى ذهنك من هذا؟»

أجبتُه: «سبب الوفاة هو مادةٌ شبة قلويةٍ نباتية؛ مادة شبيهة بالسترِكْنين تسبب الكُزاز.»

«هذا ما تبادر إلى ذهني منذ رأيتُ انقباض عضلات وجهه. ومنذ دخولي إلى الغرفة بحثت على الفور عن الطريقة التي دخل بها السم إلى جسده. وكما رأيتَ، اكتشفتُ شوكةً غُرست أو أُطلقَت بقوةٍ ليست كبيرةً على فروة رأسه. ستلاحظ أن الجزء الذي أُصيب هو الجزء الذي يُفترض أن يكون مقابلًا لفتحة السقف لو كان الرجل يجلس مستقيمًا في مقعده. والآن افحصِ الشوكة.»

تناولتُها بحرصٍ بالغ وأمسكتُها تحت ضوء المصباح. كانت طويلةً وحادة وسوداء، وطرفُها الحادُّ يبدو لامعًا كما لو أن مادةً صمغية قد جفَّت عليه. وكان طرفُها غير الحادِّ قد شُحذ باستخدام سكين.

سأل: «أهي شوكة من أصلٍ إنجليزي؟»

«لا، ليست كذلك بكلِّ تأكيد.»

«من المفترض أن تساعدك كلُّ هذه البيانات على التوصُّل إلى استنتاجٍ قوي، ولكن ها قد وصل الجنود النظاميون، يمكن للقوات المساعدة أن تتقهقر الآن.»

وبينما كان يتحدث، علا صوتُ وقع الخطوات التي كانت تقترب منا في الممر، ودلَف إلى الغرفة رجلٌ بدين ومهيب يرتدي بذلةً رمادية. كان أحمر الوجه ضخم البنية ممتلئًا، عيناه الضيقتان اللامعتان تنظران بحدَّة وذكاء من بين جفنَيه المنتفخَين المتورمَين. تبِعه مباشرةً مفتش يرتدي الزيَّ الرسمي، وثاديوس شولتو الذي كان لا يزال يرتجف.

صاح بصوتٍ أجشَّ مكتوم: «هذا سيئ! هذا أمرٌ سيئ! لكن مَن كل هؤلاء؟ لماذا يبدو المنزل مكتظًّا كجُحر أرنب!»

قال شيرلوك هولمز بهدوء: «أعتقد أنك تتذكَّرني يا سيد أثيلني جونز.»

قال بصوتٍ فيه أزيز: «بالطبع أذكرك! أنت السيد شيرلوك هولمز، الباحث النظري. أتذكرك! أنا لن أنسى أبدًا كيف ألقيتَ علينا جميعًا محاضرة عن الأسباب والاستدلالات والآثار في قضيةِ جوهرة بيشوبجيت. صحيحٌ أنكَ وضعتَنا على المسار السليم، لكن أعتقدُ أنك تُقرُّ الآن أن ذلك كان بمحضِ الصدفة السعيدة، وليس نتيجةَ حسن الاستدلال.»

«لقد كان استدلالًا منطقيًّا بسيطًا.»

«بربك! لا تخجل من الإقرار بذلك. لكن ما هذا كله؟ هذا سيئ! هذا أمرٌ سيئ! إن ما أراه هنا ما هو إلا حقائق مجرَّدة، لا مجال للنظريات هنا. كم كان من الحظ السعيد أن تَصادَف وجودي في نوروود بسبب قضيةٍ أخرى! فقد كنت في مركز الشرطة عندما وصلت الرسالة. ما سبب وفاته في رأيك؟»

قال شيرلوك هولمز بفتور: «هذه قضيةٌ بالكاد تحتاج إلى تنظيري.»

«لا، لا؛ فأنا مع ذلك لا أُنكِر أنك تُصيب كبِد الحقيقة أحيانًا. يا إلهي! الباب كان مغلقًا، حسبما فهمت. وفُقِدَت مجوهراتٌ قيمتها نصف مليون جنيه. ماذا عن النافذة؟»

«كانت مغلقة بإحكام، لكنْ هناك آثارُ أقدامٍ على عتبتها.»

«حسنًا، إذا كانت مغلقةً بإحكام فلا بد أنَّ آثار الأقدام هذه لا علاقة لها بالأمر؛ فهذا هو التفكير المنطقي؛ فقد يكون الرجل قد تُوفي جراء نوبةٍ قلبية، ولكن المجوهرات مفقودة. حسنًا! لديَّ نظرية؛ فأنا تأتيني هذه التجلِّيات أحيانًا. هلَّا غادرتَ الغرفة أيها المفتش أنت والسيد شولتو. ويمكن لصديقك أن يبقى. ما رأيك في هذا يا هولمز؟ كان شولتو، باعترافه، برفقة أخيه ليلة أمس، فقد توفي الأخ بنوبةٍ قلبية؛ وعلى إثرِ ذلك غادر شولتو ومعه الكنز. ما رأيك بهذا؟»

«بعدها قام المتوفَّى متفضِّلًا ليغلق الباب.»

«حسنًا! هناك خطأٌ ما هنا، فلننظر للأمر بنظرةٍ منطقية؛ فقد كان ثاديوس شولتو هذا برفقة أخيه، ودار شجارٌ بينهما؛ هذا ما نعرفه. الأخ توفِّي والمجوهرات اختفت؛ هذا أيضًا نعرفه. ولم يرَ أحدٌ الأخ منذ أن تركه ثاديوس. كما أنه لم ينَم في سريره، وثاديوس يبدو عليه الاضطراب لأقصى درجة. أمَّا بالنسبة إلى مظهره، حسنًا، فإنه ليس جذابًا. كما ترى أنا أنسج شباكي حول ثاديوس، وقد بدأ الخناق يضيق عليه.»

قال هولمز: «أنت لم تطَّلع على الحقائق كلها بعدُ؛ فهذه الشظية الخشبية، التي لديَّ أسبابٌ كافية للاعتقاد بأنها مسمومة، كانت مغروسة في فروة رأس الرجل حيث لا يزال بإمكانك رؤيةُ أثرها، وهذه البطاقة المكتوب فيها هذا الكلام كما ترى كانت موضوعة على الطاولة، وبجوارها تلك الأداة الغريبة ذات الرأس الحجري. أين كل ذلك من نظريتك؟»

قال المُحقِّق البدين بخُيلاء: «كل هذا يؤكدها من جميع النواحي؛ فالمنزل مليء بالتحف الهندية. أحضر ثاديوس هذه معه إلى هنا، وإذا كانت تلك الشظية مُسمَّمة، فمن المحتمل أن ثاديوس استخدمها للقتل مثلما كان سيفعل أيُّ شخصٍ آخر في مكانه. أمَّا البطاقة فهي محضُ هُراء؛ خدعة لتضليلنا على الأرجح. السؤال الوحيد هو: كيف غادر؟ حسنًا! بالطبع، هناك فتحة في السقف.» وبنشاطٍ كبير؛ نظرًا لحجمه الضخم، صَعِد درجات السلم وحشَر نفسه عبر الفتحة ليدخل إلى العلِّيَّة وبعدها على الفور سمعنا صوته المغتبط يعلن أنه وجد الباب الأفقي السحري.

علَّق هولمز وهو يهزُّ كتفَيه قائلًا: «على الأقل يمكنه اكتشاف بعض الأشياء. تنتابه لمحاتٌ من عقل من حينٍ لآخر.» ثم أردف بالفرنسية: «أكثر الناس إزعاجًا هم الحمقى الذين يمتلكون قدْرًا من الذكاء!»

قال أثيلني جونز وهو يهبط السلم: «أترى! في النهاية الحقائقُ أفضل بكثيرٍ من النظريات المجرَّدة. لقد تأكد رأيي في تلك القضية؛ يُوجد بابٌ أفقي يؤدي إلى السطح، وهو مفتوح جزئيًّا.»

«أنا من فتحتُه.»

«حسنًا! بالطبع! قد لاحظتَه إذن؟» بدا مُحبَطًا من هذا الاكتشاف بعض الشيء. ثم قال: «حسنًا، بصرف النظر عمَّن اكتشفه، هو يوضح كيف هرب المجرم. أيها المفتش!»

ردَّ من الممر: «أمرك يا سيدي.»

«اطلب من السيد شولتو أن يأتي إلى هنا. سيد شولتو، من واجبي أن أُخبرك بأن أي شيء تقوله قد يؤخَذ ضدك. أنت مقبوض عليك باسم الملكة لتورُّطك في موت أخيك.»

صاح الرجل الضئيل المسكين وهو يُقلِّب كفَّيه وينظر من أحدنا للآخر: «أرأيتما! ألم أقل لكما!»

قال هولمز: «لا تقلق بهذا الشأن يا سيد شولتو؛ فأظن أن بإمكاني التدخُّل لتبرئتك من هذه التهمة.»

قال الشرطي بحدَّة: «لا تقطع وعودًا كبيرة أيها الباحث النظري! لا تقطع وعودًا كبيرة! فقد تجد الأمر أصعب مما تصورتَه.»

«لن أُبرِّئه فحسب سيد جونز، بل سأُقدِّم لك أيضًا على طبقٍ من فضة اسم وأوصاف أحد الرجلَين اللذَين كانا في هذه الغرفة مساء أمس؛ فأنا لديَّ الأسباب الكافية التي تدفعني إلى الاعتقاد بأن اسمه هو جوناثان سمول. هو رجل تلقَّى قدْرًا بسيطًا من التعليم، وضئيل الحجم ونشيط الحركة، وساقه اليمنى مبتورة، ويرتدي طرفًا خشبيًّا مهترئًا من الجانب الداخلي. حذاؤه الأيسر طويل الرقبة له نعلٌ قاسٍ مقدمته مربعة، ومثبَّت في كعبه طوقٌ حديدي. وهو رجل في منتصف عمره، أسفع الوجه، وكان مسجونًا. هذه الدلالات القليلة قد تساعدكم. هذا بالإضافة إلى أن جزءًا كبيرًا من جِلد كفَّيه منزوع. أمَّا الرجل الآخر ...»

«ماذا؟ الرجل الآخر!» سأل أثيلني جونز بنبرةٍ تهكمية، مع أن انبهاره من دقة أسلوب هولمز بدا جليًّا.

قال هولمز وهو يستدير: «إنه شخصٌ مثير للاهتمام للغاية. آمل أن أستطيع أن أُعرِّفك على كلَيهما عما قريب. هل تسمح لي بكلمةٍ على انفراد يا واطسون؟»

قادني خارج الغرفة إلى قمة الدرَج. قال: «إن هذا الحدث غير المتوقَّع جعلنا نشيح بنظرنا عن الهدف الأصلي من رحلتنا هذه.»

أجبت: «لقد كنتُ أُفكِّر في الشيء نفسه. وليس من اللائق أن تبقى الآنسة مورستان في ذلك المنزل المشئوم.»

«صحيح؛ فيجب أن تَصحَبها لبيتها؛ فهي تعيش مع السيدة سيسِل فورستر في لوير كامبرويل، وهذا ليس بعيد جدًّا عن هنا. سوف أنتظرك هنا إذا كنت تنوي العودة، أو ربما تكون متعبًا جدًّا.»

«على الإطلاق، لا أظن أني سأستريح قبل أن أعرف أكثر عن هذا الأمر الغريب. لقد كَشفَت لي الحياة من قبلُ شيئًا من جانبها المظلم القاسي، لكني أُقسم لك بأن هذا التتابُع السريع للمفاجآت الغريبة الليلة وتَّر أعصابي تمامًا. ومع ذلك أرغب في أن أَمضِي معك في هذا الأمر حتى النهاية، بعد أن وَصَلت بالفعل إلى تلك المرحلة.»

أجاب قائلًا: «سيُساعدني وجودك كثيرًا؛ فسوف نعمل على كشف خبايا القضية بمفردنا، وسنترك جونز ذلك يطارد أيَّ سرابٍ يُخيَّل له. بعد أن تُوصِّل الآنسة مورستان، أريدك أن تذهب إلى المنزل رقم ٣ بشارع بينشن لين، بالقرب من ضفة النهر في لامبيث؛ فالمنزل الثالث على الصف الأيمن هو لُحنِّط طيور اسمه شيرمان. سترى في نافذته ابن عرس يُمسك بأرنبٍ صغير. اطرق الباب وأَيقِظه من نومه، وبلِّغ شيرمان تحياتي وأخبره أني أريد توبي على الفور. وأحضر توبي معك في العربة.»

«توبي هذا كلب، أليس كذلك؟»

«بلى، كلبٌ هجين غير عادي يمتلك حاسةَ شمٍّ مذهلة. وأنا أُفضِّل أن أحظى بمساعدة توبي عن أن أحظى بمساعدة قوة التحقيق كلها في لندن.»

قلتُ: «سأُحضره إذن، إنها الواحدة الآن. من المفترض أن أعود قبل الثالثة، إذا ألقى الحظ في طريقي حصانًا نشطًا.»

قال هولمز: «وأنا سأرى ما يمكنني معرفته من السيدة بيرنستون، والخادم الهندي الذي أخبرني السيد ثاديوس بأنه يبيت في العُلِّيَّة المجاورة. ثم سأدرس أساليب جونز العظيم وأستمع إلى تهكُّماته الغليظة. لطالما كان جوته فصيح اللسان حين قال: «لقد اعتدنا أن نرى الناس يسخرون مما لا يفهمونه».»

الفصل السابع

حادثة البرميل

اصطحبتُ الآنسة مورستان إلى بيتها في سيارة الأجرة التي كان رجال الشرطة قد أحضروها معهم. بذلك الأسلوب الملائكي الذي يُميِّز النساء، كانت تُواجه الصعاب بوجهٍ هادئ ما دام كان هناك من هو أضعف منها ويحتاج لدعمها؛ فكانت تجلس مبتهجةً وهادئة بجوار مدبِّرة المنزل الخائفة. لكن في العربة بَهتَ وجهها أولًا، ثم انَفجرَت في نوبة من البكاء؛ فقد أَتعبَتها كثيرًا مغامراتنا تلك الليلة. أخبرتني بعدها أنها رأتني باردًا ومتحفِّظًا في أثناء تلك الرحلة؛ فلم تكن تعرف بالصراع الذي احتدم في صدري، أو بالمجهود الذي بذلته في ضبط النفس لأمنع نفسي عن الإفصاح عنه. كان تعاطفي وحُبي يصبوان إليها كما فعلَت يدي في الحديقة. كنت أشعر أن أعوامًا من التعاملات التقليدية الحياتية لم تكن لِتظهر لي طبيعتها العذبة الشجاعة مثلما فعل ذلك اليوم المليء بالتجارب الغريبة. لكن كانت هناك فكرتان تمنعان كلمات الحب من مغادرة شفتيَّ؛ فقد كانت في حالة ضعف وعجز؛ عقلها مشوَّش وأعصابها متوتِّرة، والبوح لها بحبي في ذلك الوقت سيكون استغلالًا لضعفها. والأسوأ من هذا أنها غَنيَّة؛ فإن نجحَت مساعي هولمز فستصبح وريثة، فهل سيكون من الإنصاف أو الشهامة أن يستغل جرَّاح يتقاضى نصف أجر لحظةً عاطفية وضعتْها الفرصة في طريقه؟ أليس من الممكن أن أبدو في نظرها مجرد شخصٍ دنيءٍ باحث عن الثراء؟ لم أستطع المجازفة بأن تَرِد على بالها تلك الفكرة. كان كنز أجرا هذا يقف بيننا كسدٍّ منيع.

كانت الساعة تقترب من الثانية صباحًا عندما وصلنا إلى منزل السيدة سيسِل فورستر. كان الخدم قد خلدوا للنوم منذ عدة ساعات، لكن السيدة فورستر كانت مهتمة جدًّا بالرسالة الغريبة التي تلقَّتها الآنسة مورستان لدرجة أنها ظلَّت مستيقظة تنتظر عودتها. فتحت لنا الباب بنفسها، وكانت سيدةً أنيقة في منتصف العمر، وأسعدني أن أرى

كيف أحاطت بذراعها خصر الأخرى بحنان، وحيَّتها بصوتٍ يحمل نبرة تُعبِّر عن حنان الأم؛ فمن الواضح أنها لم تكن تعتبرها مجرد عاملةٍ أجيرة بل صديقة تُكِن لها الاحترام. عرَّفتني الآنسة إلى السيدة فورستر التي أصرَّت بشدة أن أدخل وأحكي لها مغامراتنا. إلا أني شرحتُ لها أهمية مهمتي، وقطعتُ لها وعدًا بأن أمرَّ عليها لأُبلغها بأيِّ تطورات قد تحدث في القضية. استرقتُ النظر خلفي والعربة تسير مبتعدة، ورأيتهما لا تزالان واقفتَين على عتبة الباب؛ السيدتان الأنيقتان اللتان تقفان وقد تشبثت كلٌّ منهما بالأخرى، والباب الموارَب، وضوء الردهة الذي يسطع خلف الزجاج المزخرَف، ومقياس الضغط الجوي، وقُضبان تثبيتِ بِساط الدرج الزاهية. كان من المريح أن أحظى ولو بلمحةٍ عابرة لمنزلٍ إنجليزيٍّ هادئ في وسط تلك القضية الجامحة الغامضة التي انغمسنا فيها.

وكلما فكرتُ فيما حدث، وجدتُها تزداد جموحًا وغموضًا. استرجعتُ سلسلة الأحداث الغريبة كلها، بينما كانت العربة تسير مُصلصِلة عبر الشوارع الصامتة المضاءة بمصابيح الغاز. كان هناك المشكلة الأصلية، وهذه على الأقل اتضحت الآن؛ وهي موت النقيب مورستان، وإرسال اللآلئ، والإعلان، والخطاب؛ فكل تلك الأحداث اتضحَت لنا. لكنها قادتنا إلى لغزٍ أعمق وأكثر مأساوية بكثير؛ الكنز الهندي، والخريطة الغريبة التي وُجِدَت بين أمتعة مورستان، والمشهد الغريب الذي شُوهد أثناء وفاة الرائد شولتو، وإعادة اكتشاف الكنز مرةً أخرى، التي تلاها مقتل مُكتشِفه، والملابسات الغريبة التي صاحبت الجريمة، وآثار الأقدام، والأسلحة المميَّزة، والكلمات المكتوبة على البطاقة التي تتوافق مع تلك المكتوبة على مخطط النقيب مورستان؛ هي بكل تأكيد متاهة، وأي رجل لا يتمتع بمثل الهبات لرفيقي في السكن المميزة كان ييئس من إيجاد مفتاح حلها.

كان شارع بينشن لين عبارة عن صفٍّ من المنازل البالية ذات الطابقَين المبنية من الطوب في المنطقة الجنوبية من لامبيث. احتجتُ لأن أطرُق باب المنزل رقم ٣ لوقتٍ طويل قبل أن تأتيني استجابة. لكن، أخيرًا، رأيتُ وميضَ شمعةٍ خلف ستار النافذة العلوية، وظهر وجهٌ منها صائحًا: «اذهب من هنا أيها المتشرِّد السكير. إذا طرقتَ الباب مرةً أخرى فسوف أفتح بيت الكلاب وأُطلق عليك ثلاثة وأربعين كلبًا.»

قلتُ: «لقد أتيت من أجل الحصول على واحدٍ منها فقط.»

صاح الصوت: «اذهب من هنا! ساعدني يا إلهي، لديَّ حية سامَّة في حقيبتي تلك وسأُلقيها على رأسك إن لم تغادر بسرعة.»

صحتُ: «لكني أريد كلبًا.»

صاح السيد شيرمان: «لن أقبل النقاش! الآن ابتعِد لأني سأعدُّ حتى ثلاثة ثم أرمي الحية.»

بادرته قائلًا: «السيد شيرلوك هولمز ...» لكن تلك الكلمات كان لها وقعٌ سحري؛ فقد أَغلقَ النافذة على الفور وفي خلال دقيقة انفتح الباب. كان السيد شيرمان رجلًا عجوزًا طويلًا نحيفًا مَحنيَّ الكتفَين له رقبةٌ نحيلة ويرتدي نظاراتٍ ذاتَ زجاجٍ أزرق.

قال: «أيُّ صديق للسيد شيرلوك هولمز مرحَّب به في أي وقت. تفضَّل بالدخول يا سيدي. لكن ابقَ بعيدًا عن الغُرَير؛ فهو يعَض. «أيها الخبيث، أتريد عضَّ ذلك السيد؟»» قال هذا لحيوان القاقُم الذي دفع رأسه الكريه وعينَيه الحمراوَين بين قُضبان قفصه. «لا تهتمَّ لأمر ذلك الشيء؛ فتلك مجرد عَظايةٍ عمياء؛ فهي ليس لها أنياب؛ لذا أتركها تجوب الغرفة لتُخلِّصني من الخنافس. لا تُؤاخذني بفظاظتي معك في البداية؛ فالأطفال يضايقونني، والعديد منهم يأتون إلى هنا فقط كي يقرعوا بابي ويقضُّوا مضجعي. ماذا يريد السيد شيرلوك هولمز يا سيدي؟»

«يُريد أحد كلابك.»

«آه! بالتأكيد يقصد توبي.»

«أجل، توبي هو اسمه.»

«توبي يسكن في رقم ٧ هنا على اليسار.» مشى للأمام ببطء بين عائلة الحيوانات الغريبة التي أحاط نفسه بها وهو يحمل شمعته. وفي الضوء الخافت الظَّلِيل، كدتُ أرى عيونًا محدِّقةً لامعة تسترق النظر إلينا من كل حدب وصوب؛ فحتى عوارض السقف الخشبية فوقنا كانت تَصطفُّ عليها بوقارٍ طيورٌ تنقل وزنَها من قدمٍ إلى أخرى بتكاسُل بعد أن أقضَّت أصواتنا مضجعها.

اتضَح أن توبي حيوانٌ قبيحٌ طويل الشعر أخطل، وهو هجينٌ من سُلالتَي السبانيل والجواس، لونه بُني وأبيض، له مشيةٌ متهاديةٌ ثقيلة. قَبِل مني بعد تردُّد قطعةً من السكر ناولَني إياها عالم الطبيعة العجوز، وبعد أن دشنَّا تحالُفنا بذلك، تبِعني إلى العربة ولم يُبدِ أي اعتراض على مرافقتي. كانت ساعة القصر قد دقَّت الثالثة لتوِّها عندما وجدتُ نفسي أمام بونديتشري لودج مرةً أخرى. علمتُ أن الملاكم السابق مكموردو قد أُلقي القبض عليه باعتباره شريكًا في الجريمة، واقتيد هو والسيد شولتو إلى القسم. وقف يحرس البابَ الضيق شرطيان، لكنهما سمحا لي بالمرور ومعي الكلبُ عندما ذكرتُ اسم المحقق.

كان هولمز يقف على عتبة الباب يُدخِّن غليونه ويداه في جيبَيه.

قال: «آه! لقد أحضرتَه. كلبٌ جيد! لقد غادر أثيلني جونز. لقد شهدنا نوبةَ نشاطٍ عنيفة بعد أن غادرتَ؛ فلم يكتفِ فحسب باعتقال صديقنا شولتو، بل اعتقل أيضًا حارس البوابة ومدبِّرة المنزل والخادم الهندي. وهكذا أصبح المكان فارغًا أمامنا الآن إلا من رقيبٍ في الطابق العلوي. اترك الكلب هنا وتعالَ معي لأعلى.»

ربطنا توبي في رجل طاولة الردهة وصعِدنا السلالم مرةً أخرى. كانت الغرفة كما تركها، باستثناء أن الجثة غُطِّيت بمُلاءة. وفي ركن الغرفة وقف الرقيب متكئًا وقد بدَت عليه أماراتُ التعب.

قال رفيقي: «أعِرْني مِصباحكَ أيها الرقيب. والآن، اربط هذه البطاقة حول عنقي كي تبقى أمامي طَوالَ الوقت، شكرًا لك. والآن عليَّ أن أخلع حذائي وجواربي، فقط خذها معك للأسفل يا واطسون؛ فسوف أتسلَّق قليلًا. وسأغمس منديلي في الكيروزوت، هذا سيفي بالغرض. والآن اصعد معي إلى العُلِّيَّة لدقيقة.»

صعِدنا عبر الفتحة، ووجَّه هولمز مصباحه مرةً أخرى إلى آثار الأقدام الظاهرة في الغُبار.

قال: «أريدك أن تلاحظ آثارَ الأقدامِ هذه على وجه التحديد. هل تُلاحظ بهما ما يلفت نظرك؟»

قلتُ: «يبدو أنها تعود لطفل أو لامرأةٍ ضئيلة الحجم.»

«بعيدًا عن حجمها، ألا تُلاحظ شيئًا آخر؟»

«تبدو لي مثل أي آثارِ أقدامٍ أخرى.»

«كلا على الإطلاق، انظر هنا! هذ أثر قدمٍ يمنى في الغبار. والآن سأترك بجواره أثر قدمي الحافية، ما الاختلاف الجوهري بينهما؟»

«أصابع قدمك قريبة بعضها من بعض، أمَّا أصابع القدم الأخرى فمتباعدة بوضوح.»

«بالضبط، هذا ما قصدتُه. ضع هذا في حسبانك. والآن هلَّا ذهبتَ إلى تلك النافذة المرتدة وشَممتَ حافةَ إطارها الخشبي؟ سوف أبقى هنا، لأني أحمل في يدي ذلك المنديل.»

فعلتُ كما قال، ولاحظت على الفور رائحةً قوية تشبه رائحة القطران.

«هنا وضع قدمه في طريقه للخروج. إذا كان بإمكانك أنت أن تقتفي أَثَرها، فأعتقد أن ذلك لن يكون صعبًا على توبي. والآن انزل السلم وفُكَّ وَثاقَ الكلب، وترقَّب عرضًا بهلوانيًّا.»

عندما أصبحتُ خارج المنزل، كان شيرلوك هولمز على السطح، وكنتُ أراه يزحف ببطء على الحافة مثل يراعةٍ متوهِّجة. توارى عن نظري خلفَ صفٍّ من المداخن لكنه عاود الظهور، ثم اختفى مرةً أخرى على الجانب المُقابل. وعندما ذهبتُ إلى هناك وجدتُه جالسًا على إفريزٍ جانبي.

صاح: «أهذا أنت يا واطسون؟»

«نعم.»

«هذا هو المكان، ما هذا الشيء الأسود بالأسفل؟»

«إنه برميل مياه.»

«هل عليه غطاؤه؟»

«نعم.»

«أترى أي أثر لسلَّم؟»

«لا.»

«تبًّا لذلك الرجل! هذا مكانٌ شديد الخطورة. يُفترَض أن أتمكن من النزول من حيث تسلَّق. تبدو ماسورة المياه تلك متينة. سأنزل عليها على أية حال.»

سمعتُ صوتَ احتكاكِ أقدام، وبدأ المصباح ينزل بوقعٍ ثابت إلى جانب الحائط. وبوثبةٍ رشيقة، نزل على سطح البرميل ومنه إلى الأرض.

قال وهو ينتعل جوربه وحذاءه: «كان من السهل تتبُّعه؛ فقد كان القرميد مُتخلْخلًا على طول الطريق، وفي عَجلَته سقط منه هذا. وكما تقولون يا معشر الأطباء، هذا يؤكد تشخيصي.»

كان الشيء الذي رفعه أمامي جرابًا أو كيسًا منسوجًا من العشب الملوَّن مربوطًا عليه بضع خرزاتٍ رخيصة. لم يكن يختلف كثيرًا عن علبة السجائر في شكله وحجمه. وبداخله وجدنا نصف دستة من الشوكات الخشبية الداكنة، أحد طرفَيها حادٌّ والآخر مُدوَّر، مثل تلك التي أصابت بارثلوميو شولتو.

قال: «هذه أشياءُ شيطانية، احترس كي لا تَخِز نفسك. أنا سعيد بأنها وقعَت بحوزتي؛ لأنه على الأرجح ليس معه غيرها. وهكذا لم يعد هناك احتمالٌ أن أجد أنا أو أنت إحدى تلك الشوكات مغروسة في جلدنا عما قريب؛ فأنا أُفضِّل الإصابة برصاصة من بندقية مارتيني عن أن أُصاب بواحدةٍ منها. هل تستطيع السير لمسافة ستة أميال يا واطسون؟»

أجبتُ: «بالطبع.»

«هل ستتحمل ساقك هذا؟»

«أجل، بكل تأكيد.»

«هيا أيها الكلب! توبي الجيد العجوز! شُمَّه يا توبي شمه!» دفع بالمنديل المغموس بالكيروزوت نحو أنف الكلب، بينما وقف الكلب مباعدًا بين أقدامه المكسوَّة بالفراء، وأمال رأسه جانبًا بطريقةٍ كوميدية كخبير يشمُّ عبق نبيذٍ شهير معتَّق. بعد ذلك، رمى هولمز المنديل بعيدًا، وربط حبلًا متينًا في طوق الكلب الهجين، وقاده إلى قاعدة برميل المياه. وعلى الفور، أطلق الكلب نباحًا عاليًا مضطربًا متتابعًا، وانطلق على إثْر الرائحة خافضًا أنفَه إلى الأرض ورافعًا ذيله في الهواء بسرعة جعلت رَسنَه مشدودًا وجعلَتنا نسير بأقصى سرعتنا.

كان الأفق جهة الشرق يُنير تدريجيًّا، وكشف ضوءُه الرمادي البارد الطريق أمامنا بعض الشيء. وتركْنا خلفنا المنزل المربع الضخم بنوافذه المُعتِمة والفارغة، وجُدرانه العالية العارية، بائسًا مهجورًا. قادنا طريقنا عبر الأراضي المحيطة بالمنزل، ومنها إلى الخنادق والحُفر التي كانت تملؤها وتتقاطع فيها. بدا المكان كله، بأكوام التراب المتناثرة في أنحائه وشجيراته الذابلة مُدمرًا ومنحوسًا، وكان منظره يتماشى تمامًا مع المأساة السوداء التي حدثَت فيه.

عندما وصلنا إلى السور المحيط به، جرى توبي بمحاذاته، وهو يطلق أنينًا مبتهجًا، ثم توقَّف أخيرًا عند زاويةٍ تحجبها إحدى أشجار الزان اليافعة. وفي زاوية التقاء جدارَين بالسور، حُلَّت عدة لبناتِ طوبٍ من مكانها، وكانت الشقوق التي خلَّفتها متآكلةً ومستديرة الحوافِ وكأنما استُخدمت سُلمًا مِرارًا وتَكرارًا. تسلَّقها هولمز، وناولتُه الكلب فأنزله على الجانب الآخر.

قال معلِّقًا وأنا أَصعَد على السور بجواره: «هذه بصمة الرجل ذي القدم الخشبية. أترى لطخة الدم الصغيرة هذه على الجبس الأبيض؟ لقد حالفَنا الحظ فلم تسقط أمطارٌ غزيرة منذ أمس؛ فهكذا سيظل أثر الرائحة موجودًا على الطريق، على الرغم من مرور ثمانٍ وعشرين ساعة على هروبهما.»

أُقرُّ بأن الشك ساورَني عندما فكَّرتُ في حركة المرور الكبيرة في شارع لندن خلال تلك الفترة الزمنية. لكن تبدَّدَت مخاوفي سريعًا؛ فتوبي لم يتردَّد أو يحِد للحظة، بل ظل يتهادى في مشيته الثقيلة العجيبة. من الواضح أن رائحة الكيروزوت النفَّاذة كانت تطغى على ما سواها من الروائح الأخرى المتداخلة.

قال هولمز: «لا تظن أني أعتمد في نجاحي في حل هذه القضية على احتمالِ أن أحد هذَين الشخصَين داس بقدمه في هذه المادة الكيميائية فقط؛ فلديَّ من المعلومات الآن ما يكفل لي تعقُّبهما بعدة طرقٍ مختلفة. لكن هذه هي الطريقة الأسهل، وبما أن الحظَّ وضعها بين أيدينا، سأكون مذنبًا لو تجاهلتُها. لكنها حالت دون تحوُّل القضية إلى المشكلة التي تتطلَّب جهدًا ذهنيًّا كما بدت لي في بدايتها. ولولا ذلك الدليل الدامغ، لكنتُ نسبتُ لنفسي بعض الفضل.»

قلت: «بل فضلك يكفي ويفيض؛ فأنا أؤكد لك يا هولمز أن أساليبك في التوصُّل للنتائج في تلك القضية تُذهلني أكثر حتى من جريمةِ القتل التي ارتكبها جيفرسون هوب؛ فالأمر كله يبدو لي أكثر تعقيدًا وغموضًا؛ فكيف، على سبيل المثال، تمكَّنتُ من وصفِ الرجل ذي الساق الخشبية بكل دقة؟»

«يا صديقي العزيز! كان ذلك هو البساطة بعينها. لا أرغب بأن يبدو أسلوبي مسرحيًّا؛ فالأمر كله جلي وواضح كالشمس؛ فقد علم الضابطان المسئولان عن حراسة السجن بسرٍّ مهمٍّ عن كنزٍ مدفون. رسم رجلٌ إنجليزي اسمه جوناثان سمول لهما خريطة. كما تذكر رأينا اسمه مكتوبًا على المُخطَّط الذي وُجِد ضمن متعلِّقات النقيب مورستان. وقَّع على هذا المُخطَّط باسمه وبالنيابة عن شركائه، واختار لها اسمًا له وقعٌ درامي وهو علامة الأربعة. وبمساعدة هذا المُخطَّط، حصل الضابطان أو بالأحرى أحدهما على الكنز، وأتى به إلى إنجلترا، دون أن يفي بالشرط الذي حصل عليه وَفقَه، على ما أفترض. ولكن لماذا لم يُخرج جوناثان سمول الكنز بنفسه؟ الإجابة واضحة؛ فيعود تاريخ المُخطَّط إلى وقتٍ كان يعمل فيه مورستان مع المساجين عن كثب؛ فلم يخرج جوناثان سمول الكنز بنفسه لأنه هو وشركاؤه كانوا مَسجونِين، ولم يكن بإمكانهم الهروب.»

قلت: «لكن هذا مجرد تخمين.»

«بل هو أكثر من ذلك؛ فتلك هي الفرضية الوحيدة التي تتماشى مع الحقائق. لِنرَ كيف تتماشى مع باقي الأحداث؛ فقد ظل الرائد شولتو يعيش في سلامٍ لعدة سنوات، ويعيش سعيدًا وفي حوزته الكنز، ثم يتلقَّى خطابًا من الهند يُثير رعبه. ماذا كانت فحواه؟»

«خطاب يفيد بأن الرجال الذين خانهم قد أُطلِق سراحهم.»

«أو أنهم هربوا، وهذا هو الأرجح، لأنه كان يعلم مدة عقوبتهم، ولم يكن ليُفاجأ بخروجهم. ماذا فعل حينها؟ بدأ يحمي نفسه من رجلٍ ذي ساقٍ خشبية؛ رجلٍ أبيض، لأنه خلط بينه وبين تاجرٍ أبيض، بل أطلق عليه النار بالفعل. والآن المُخطَّط يحوي اسم

رجلٍ أبيضَ واحدٍ فقط. والأسماء الأخرى تعود لهندوسٍ أو مسلمين. ولا يُوجد رجلٌ أبيض غيره؛ ومن ثَمَّ يمكننا القول بكل ثقة إن الرجل ذا الساق الخشبية هو نفسه جوناثان سمول. هل يبدو لك ذلك الاستدلال المنطقي خاطئًا؟»

«لا، بل هو واضح وموجز.»

«حسنًا، والآن، لنضع أنفسنا مكان جوناثان سمول. لننظر إلى الأمور من وجهة نظره. لقد أتى إلى إنجلترا بغرضِ استعادةِ ما اعتبره حقًّا له، وكذلك الانتقام من الرجل الذي أخطأ في حقه. اكتشف مكان إقامة شولتو، ومن المحتمل أن يكون قد تواصل مع أحد الأشخاص من داخل المنزل. قد يكون رئيس الخدم لال راو؛ ذلك الذي لم نقابله؛ فالسيدة بيرنستون تعتقد بأنه شخص سيئ. لكن سمول لم يستطع اكتشاف مكان إخفاء الكنز، لأن أحدًا لم يعرفه باستثناء الرائد وخادمه المخلص الذي توفي. وفجأة يعلم سمول أن الرائد على فراش الموت. وفي خِضَم خوفه من أن يموت سر الكنز معه، يباغت الحارسَين، ويشقُّ طريقه إلى نافذة الرجل الذي يرقد على مشارف الموت، ولم يمنعه من الدخول سوى وجود ابنَيه. إلا أنه بسبب غضبه الشديد من الرجل المتوفَّى، يدخل الغرفة في تلك الليلة ويُفتِّش أوراقه الخاصة على أملِ إيجادِ أيةِ ملحوظةٍ عن الكنز، وأخيرًا يترك تذكارًا لزيارته في صورة الكتابة التي تركها على البطاقة. كان ينوي دون شكٍّ ترك ملاحظةٍ كتلك على جثة الرائد حال قتله، للدلالة على أنها لم تكن جريمةَ قتلٍ عادية، بل هي تحقيق للعدالة من وجهة نظر الشركاء الأربعة. تكاد سجلات الجريمة لا تخلو من مثل تلك الأفعال المتغطرسة الغريبة والشاذة، وعادةً ما تحمل مؤشراتٍ قويةً على المجرم. هل تتابع ما أقول حتى الآن؟»

«بكل وضوح.»

«والآن، ما الذي يمكن أن يفعله جوناثان سمول؟ لم يسَعْه إلا أن يراقب سرًّا محاولات العثور على الكنز؛ فمن المحتمل أنه كان يغادر إنجلترا ويعود إليها على فتراتٍ متباعدة، ثُمَّ أتى أمر اكتشاف الكَنز في العُلِّيَّة، وقد بُلِّغ به على الفور. وهنا أيضًا نلحظ أثَر وجودِ حليفٍ له من داخل المنزل. كان جوناثان عاجزًا تمامًا عن بلوغِ حجرةِ بارثلوميو شولتو المرتفعة بسبب ساقه الخشبية؛ لذا اصطحَب معه شريكًا مثيرًا للاهتمام، استطاع تخطِّي تلك العقَبة، لكنَّه داس بقدمه العارية في الكيروزيت، وهنا يأتي دور توبي، ورحلة لمسافةِ ستةِ أميالٍ قطعها ضابطٌ أعرجُ يتقاضى نصفَ أجر، ولديه إصابةٌ في وتَر أَخيل بقدمه.»

«لكن الشريك هو من ارتكب الجريمة وليس جوناثان.»

«بالضبط، وقد أثار ذلك امتعاض جوناثان، وهو ما يتضح من مشيته الغاضبة عندما دخل إلى الغرفة؛ فهو لم يكن يحمل أي ضغينة لبارثلوميو شولتو، وكان يُفضِّل تقييده وتكميم فمه، ولم يرغب في أن يُودِي بحياته. لكنه لم يستطع فعل شيء؛ فقد أطلق شريكه بالفعل العِنان لغرائزه الهمجية، وأدَّى السم وظيفته؛ لذا ترك جوناثان سمول توقيعه وأنزل صندوقَ الكنز إلى الأرض ونزل وراءه. كان هذا هو تسلسُل الأحداث كما تسنَّى لي تفسيرها. أمَّا بالنسبة إلى هيئته، فلا بد وأنه رجل في منتصف العمر، ولا بد أن تكون قد لفحَته الشمس بعد أن قضى مدة عقوبته في مكانٍ شديد الحرارة مثل جزر أندمان. أمَّا بالنسبة إلى طوله، فيمكن حسابه بسهولة من طول خطوته، ونعلم أيضًا أنه ملتحٍ؛ فقد كانت غزارة الشعر في وجهه هي أكثر ما ترك انطباعًا لدى ثاديوس شولتو عندما رآه عند النافذة. هذا كل ما أعرفه.»

«والشريك؟»

«حسنًا، إن هويته لا تمثل لغزًا كبيرًا، ولكنك قريبًا ستعرف كل شيء عنه. يا لجمال نسماتِ الصباح! أترى كيف تطفو تلك السحابة الصغيرة مثل ريشةٍ زهرية من طائر فلامنجو عملاق. وها هو إطار الشمس الأحمر يشقُّ طريقه عبر سحب لندن الكثيفة. ويشرق ضوءُها على عددٍ هائل من الناس، لكني أراهن أنه لا يُوجد من بينهم من لديه مهمةٌ أغرب من مهمتنا تلك. كم نشعر بضآلة طموحاتنا ومساعينا أمام قوى الطبيعة العظيمة! هل أنت ملمٌّ بأعمال جون بول ريتشر؟»

«إلى حدٍّ كبير؛ فقد عرفت طريقي إليه من كارلايل.»

«هذا يشبه اتباع مجرًى مائيٍّ صغير إلى البحيرة الرئيسية. إن له ملاحظةً غريبة ولكنها عميقة؛ وهي أن أعظمَ دليلٍ على عظمةِ الإنسانِ الحقيقية يكمن في إدراكه لمدى ضآلته؛ فهي، كما ترى، تشير إلى عقد المقارنات وحسن تقدير الذات، التي بدورها دليلٌ على النُّبل. هناك الكثير مما يدعو للتأمُّل في أفكار ريتشر. هل معك مسدَّس؟»

«معي عصاي.»

«قد نحتاج لشيء من هذا القبيل إذا وصلنا إلى عُقر دارهم. سوف أترك لك أمر جوناثان سمول، لكن إذا تصرَّف الرجل الآخر بوحشيةٍ فسأُرديه صريعًا.» أخرج مسدَّسه وهو يتحدث، ووضع به رصاصتَين ثم أعاده إلى جيب مِعطفه الأيمن.

طَوال ذلك الوقت كنا نتبع توبي عبر الشوارع شبه الريفية التي تحدُّها الفيلات وتقودنا إلى الحضَر. لكننا بدأنا بعدها نسير في شوارعَ متواصلة؛ حيث كان عمال البناء

وعمال الميناء قد خرجوا بالفعل إلى أعمالهم، والمومسات قد بدأن في إسدال ستائرِ نوافذِ بيوتهنَّ وكنس مداخلها. وفي الساحة عند الناصية، كانت الحانات قد بَدأَت تفتح أبوابها، وكان الرجال القُساة المظهر يخرُجون منها وهم يمسحون لحاهم بأكمامهم بعد احتسائهم لمشروبهم الكحولي الصباحي. كانت الكلاب الغريبة تتسكع مُحدِّقة فينا باستغرابٍ في أثناء مرورنا. لكن كلبنا الفريد توبي لم يتلفت يمينًا أو يسارًا، بل ظل يهرول إلى الأمام وأنفه إلى الأرض ويطلق من آنٍ لآخر أنينًا مبتهجًا يدُل على أنه وجد أثَر رائحةٍ قويًّا.

كنا قد قطعنا أحياءَ ستريتهام، وبريكستون، وكمبرويل، والآن وجدنا أنفسنا في شارع كيننجتون لين، بعد أن تنقَّلنا عَبْر الشوارع الجانبية شرق ملعبِ الكريكيت البيضاوي. يبدو أن الرجلَين اللذَين كُنا في إثرهما أخذا طريقًا متعرِّجًا غالبًا بغرض الاختباء عن الأعين؛ فهما لم يلتزما قَط بالسير في الطريق الرئيسي إذا كان هناك شارعٌ جانبيٌّ مُوازٍ يؤدي إلى وجهتهم. وفي نهاية شارع كيننجتون لين، سارا جهة اليسار عَبْر شارع بوند وشارع مايلز. وحيث يؤدي ذلك الأخير إلى نايتس بلايس، توقف توبي عن التقدُّم للأمام وبدأ يعدو جيئةً وذهابًا وهو يرفع إحدى أُذنَيه ويُرخي الأخرى في تجسيدٍ مثالي لتردُّد الكلاب. ثم بدأ يتهدَّى في دوائر ويرفع نظره إلينا من حينٍ لآخر كما لو أنه يستجدي تعاطُفنا في موقفه الحرِج.

صاح هولمز متذمِّرًا: «ما خطب ذلك الكلب بحق الجحيم؟ بالتأكيد هما لم يركبا عربة أو يستقلَّا منطادًا.»

قلتُ مُخمنًا: «ربما وقفا هنا لبعض الوقت.»

قال رفيقي بنبرة ارتياح: «اه! لا مشكلة، إنه ينطلق مرةً أخرى.»

كان ينطلق بالفعل؛ فبعد أن ظل يشم محيطنا مرةً أخرى أخذ قراره فجأة وانطلق مُسرعًا بهمةٍ وإصرارٍ أكثر من ذي قبل. بدا أن الرائحة أَصبحَت أقوى من ذي قبل، حتى إنه لم يُضطر لأن يُقرِّب أنفه من الأرض، بل شدَّ رَسَنه وهو يحاول الركض بسرعة. كنتُ أرى من اللمعة في عينَي هولمز أنه يظن أننا شارفنا على نهاية رحلتنا.

كنا نسير الآن عَبْر منطقة ناين إلمز حتى وصلنا إلى مستودع أخشاب برودريك آند نيلسون الكبير، بعد حانة وايت إيجل. هنا اندفع الكلب وقد انتابه حماسٌ شديد عبر البوابة الجانبية إلى داخل السياج حيث كان ناشرو الأخشاب قد بدءوا عملهم بالفعل. استمر الكلب في العَدْو بين النُّشارة والبُرادة ثُم في زُقاق، ثم في ممر، ثم بين كومتَين من الأخشاب، وأخيرًا، وبنباح المنتصر قفَز فوق برميلٍ ضخم كان لا يزال في مكانه فوق

العربة اليدوية التي حملَته إلى هذا المكان. وقف توبي فوق البرميل مدليًا لسانه وطارفًا عينَيه، ينظر من أحدنا للآخر منتظرًا أي لفتةِ امتنان. كان جسم البرميل وعجلات العربة اليدوية ملطخَين بسائلٍ داكن اللون وكانت رائحة الكيروزوت تملأ الهواء.

نظر كلٌّ منا إلى الآخر نظرةَ ذهول ثم انفجرنا معًا في نوبةٍ من الضحك الهستيري.

الفصل الثامن

قوات شارع بيكر غير النظامية

سألتُه: «ماذا سنفعل الآن؟ لقد فقد توبي سمته المميزة التي لا تخطئ.»

قال هولمز وهو يُنزله من فوق البرميل ويقتاده إلى خارج مستودع الأخشاب: «لقد تصرَّف وفق معطياته. إذا وضعتَ بعين الاعتبار كمية الكيروزوت التي تُنقَل حول لندن في كل اليوم، فلن تتعجَّب كثيرًا أن الأَثَر الذي نقتفيه اختلط بآخر. لقد أصبح استخدامه شائعًا هذه الأيام خاصة لتجفيف الأخشاب. لا يجب أن نلوم توبي المسكين.»

«إذن، أعتقد أننا يجب أن نعود لاقتفاء أثَر الرائحة الأصلية.»

«أجل، ولحسن الحظ، لن نُضطر للسير لمسافةٍ طويلة؛ فمن الواضح أن ما أثار ارتباك الكلب عند ناصية نايتس بلايس هو وجود أَثرَين مختلفَين للرائحة نفسها يسيران في اتجاهَين متعاكسَين. لقد تبِعنا الأثر الخاطئ من قبلُ، ولم يبقَ لنا الآن إلا أن نتبعَ الآخر.»

لم نجد صعوبة في ذلك؛ فحين اقتدنا توبي إلى المكان الذي أخطأ فيه، بدأ يدور في دائرة كبيرة ثم انطلق أخيرًا في اتجاهٍ جديد.

قلت ملاحظًا: «يجب أن ننتبه كي لا يقودنا إلى المكان الذي أتى منه برميل الكيروزوت.»

«لقد فكرتُ في هذا، لكنك إذا نظرتَ فستلاحظ أنه يسير على الرصيف، بينما البرميل كان يسير في الطريق. نحن نتبع الرائحة الأصلية الآن.»

قادنا إلى ضفَّة النهر بين بيلمونت بلايس وشارع برينس. وفي نهاية شارع برود ركض حتى وصل إلى حافة الماء حيث يُوجد رصيف مرفأٍ خشبيٍّ صغير. قادنا توبي إلى حافة الرصيف ووقف يعوي وهو ينظر إلى تيار النهر الداكن تحته.

قال هولمز: «لم يسعفنا الحظ؛ فقد استقلَّا مركبًا من هنا.» كان هناك عدة مراكب وقواربَ صغيرةٍ منتشرة على سطح الماء وعند حافة الرصيف. أخذنا توبي إلى كلٍّ منها بالترتيب لكن مع أنه كان يشم بهمة، لم يُبدِ أية إشارة.

بالقرب من رصيف المرسى البدائي كان يُوجد منزلٌ صغيرٌ مبني من الطوب، عُلِّقت في نافذته الثانية لافتةٌ خشبية مكتوب عليها بأحرفٍ كبيرة «مورديكاي سميث»، وتحتها «قوارب للإيجار بالساعة أو باليوم». وعلمنا من عبارةٍ أخرى مكتوبة فوق الباب أن لديهم زورقًا بخاريًّا. أكد تلك العبارةَ وجودُ كومةٍ كبيرة من الفحم على الرصيف البحري. تلفَّت شيرلوك هولمز حوله ببطء، وارتسم على وجهه تعبير يُنذر بالسوء.

قال: «هذا يبدو سيئًا؛ فهذان الرجلان أذكى مما توقعت. يبدو أنهما أخفيا أثرهما جيدًا. أخشى أن ما حدث كان بترتيبٍ مسبق.»

كان يقترب من باب المنزل عندما انفتح وخرج منه صبيٌّ صغيرٌ مُجعَّد الشعر يجري، وتلحق به امرأةٌ بدينةٌ محتقنة الوجه وفي يدها إسفنجةٌ كبيرة.

صاحت: «عُدْ إلى هنا لتستحمَّ يا جاك. عُد إلى هنا أيها العفريت، فإذا عاد أبوك إلى المنزل ورآك هكذا، فسيوبِّخنا.»

قال هولمز بأسلوبٍ استراتيجي: «يا لك من صبيٍّ جميل! يا لك من طفلٍ شقي مُورد الخدَّين! أهناك ما ترغب به يا جاك؟»

فكَّر الصغير لبرهة، وقال: «أريد شلنًا.»

«ألا تُفضِّل شيئًا آخر؟»

ردَّ الطفل الفطن بعد تفكير: «بل أُفضِّل الحصول على شلنَين.»

«هاك إذن! التقط! — يا له من طفلٍ رائع يا سيدة سميث!»

«بوركتَ يا سيدي بل هو أكثر من رائع. يصير من الصعب عليَّ السيطرة عليه، خصوصًا عندما يغيب زوجي لأيام.»

قال هولمز بصوتٍ ينم عن خيبة الأمل: «أهو غائب؟ هذا مؤسفٌ فقد أردت الحديث مع السيد سميث.»

«لقد خرج منذ صباحِ أمس يا سيدي، ولا أُخفيك أني بدأتُ أقلق عليه. لكن إذا كنت تريده بخصوص قاربٍ يا سيدي، فأنا أيضًا يمكنني خدمتك.»

«لقد أردتُ استئجار زورقه البخاري.»

«يا إلهي! لقد ذهب في الزورق البخاري يا سيدي. وهذا ما يُحيِّرني؛ فأنا أعلم أن ما به من فحمٍ يكفي بالكاد لرحلة ذهابٍ وعودةٍ من ولويتش؛ فلو كان قد ذهب في الصندل ما كنت لأقلق؛ ففي العديد من المرات تَضطرَه مهمة عملٍ للذهاب بعيدًا حتى جريفسيند، وإذا كان لديه الكثير ليفعله فقد يبيت هناك. ولكن ما نفعُ الزورق البخاري إن نفد منه الفحم؟»

«قد يكون اشترى بعضًا منه من رصيفٍ آخر على النهر.»

«هذا ممكن يا سيدي، لكن هذا ليس من طبعه؛ فقد سمعته عدة مرات يتذمَّر من الأسعار التي يطلبونها مقابل مجرد بضعةِ أكياسٍ منه. علاوةً على أني لا أرتاح لذلك الرجل ذي الساق الخشبية بوجهه القبيح ولكنته الغريبة. ماذا يريد بالتردُّد علينا هنا طوال الوقت؟»

قال هولمز بدهشةٍ خفيفة: «رجل ذو ساقٍ خشبية؟»

«أجل يا سيدي، رجلٌ أسمر البشرة قبيح الوجه أتى إلى هنا أكثر من مرة ليقابل زوجي. هو من أيقظه مساءَ أمس، والأغرب من هذا أن زوجي كان يعلم بقدومه لأنه كان قد جهز الزورق. بصراحة يا سيدي، لستُ مطمئنةً لذلك الأمر.»

قال هولمز وهو يهزُّ كتفَيه: «لكن يا عزيزتي السيدة سميث، ليس هناك ما يستدعي الخوف؛ فكيف عرفتِ أن من أتى مساء أمس كان هو الرجل ذو الساق الخشبية؟ لا أفهم كيف تأكدتِ أنه هو.»

«من صوته يا سيدي؛ فأنا أعرف صوته، فهو خشِن ومبحوحٌ نوعًا ما. طرَق على النافذة في حوالي الساعة الثالثة وقال: «استيقِظ يا صاح. حان موعد تغيير نوبة الحراسة.» أيقظ زوجي جيم — ابني البكر— وغادَرا دون أن ينطقا لي بكلمةٍ واحدة، ثم سمعتُ صوت طقطقة الساق الخشبية على الحجارة.»

«وهل كان الرجل ذو الساق الخشبية هذا بمفرده؟»

«لست متأكدة يا سيدي، ولكني لم أسمع صوت أحدٍ آخر.»

«أنا آسف يا سيدة سميث، كنت أريد استئجار زورقٍ بخاري، وقد سمعت كلامًا جيدًا عن ... ماذا كان اسمه؟»

«اسمه «أورورا» يا سيدي.»

«آه! أهو ذلك الزورق القديم الأخضر الذي به خطٌّ أصفر، ومقدمته عريضةٌ جدًّا؟»

«كلا، في الواقع هو صغير الحجم مثل أي زورقٍ آخر هنا في النهر. لقد طُلي حديثًا بالأسود وبه خطَّان أحمران.»

«شكرًا لكِ، أتمنى أن تسمعي من السيد سميث قريبًا. سوف أُبحر في النهر، وإذا صادفتُ الزورق «أورورا» فسأُخبر زوجك بأنكِ قلقة بشأنه. قلتِ إن مدخنة الزورق سوداء، أليس كذلك؟»

«لا يا سيدي، بل سوداء وبها شريطٌ أبيض.»

«أجل، بالطبع؛ فجوانبه هي السوداء. عمتِ صباحًا يا سيدة سميث. أرى مراكبيًّا معه زورقٌ نهري هناك يا واطسون، لنأخذَه ونعبر النهر.»

قال هولمز ونحن نجلس على ألواح الزورق: «أهم شيء في التعامل مع هذا النوع من الأشخاص هو ألا تدعهم أبدًا يشعرون بأن ما يُدلون به من معلومات يُمثل أي أهمية بالنسبة إليك. فإن فعلت سيُطبِقون فمهم على الفور مثل المحار. أما إذا استمعت لهم وأنت مُحتج، كما فعلتُ أنا، فستَحصُل غالبًا على مرادك.»

قلت: «يبدو أن مسارنا أصبح واضحًا الآن.»

«ماذا تفعل إذن؟»

«أستأجر زورقًا بخاريًّا وأُبحر في النهر في إثر الزورق «أورورا».»

«يا صديقي العزيز، ستكون تلك مهمةً بالغة الصعوبة. فمن الممكن أن يكون قد رسا في أيٍّ من الأرصفة العديدة المنشرة على ضفتَي النهر من هنا إلى جرينتش؛ فتحت الجسر توجد متاهة من المراسيِّ تمتد لأميال، وقد يستغرق البحث فيها جميعًا أيامًا عديدة إن فعلت ذلك بمفردك.»

«فلنستعِن بالشرطة إذن.»

«لا، غالبًا سأستدعي أثيلني جونز في اللحظة الأخيرة. فهو ليس شخصًا سيئًا، ولا أرغب في فعل ما قد يضرُّه مهنيًّا. لكني أريد أن أحلَّ تلك القضية بنفسي بما أننا وصلنا إلى هذا الحد بالفعل.»

«هل يُمكن أن ننشر إعلانًا نطلب فيه معلومات من أصحاب المرافئ؟»

«سيكون وقع ذلك أسوأ بكثير! فسيعرف الرجلان أنهما أصبحا مطاردَين وربما يغادران البلاد. الأرجح أنهما ينويان مغادرتها على أيٍّ حال، لكن ما داما يظنان أنهما بمأمن فلن يكونا في عجلة من أمرهما. كما أن مجهودات جونز ستكون في صالحنا في تلك النقطة؛ فوجهة نظره بخصوص القضية حتمًا ستصل إلى الصحف اليومية وسيظنُّ الهاربان أن الجميع يتبع الأثر الخاطئ.»

سألته ونحن نرسو بالقرب من إصلاحية ميلبانك: «ماذا سنفعل إذن؟»

«سنستقلُّ تلك العربة ونذهب إلى المنزل ونتناول الإفطار ونحظى بقسط من النوم؛ فعلى الأرجح سوف ننطلق هذا المساء مرةً أخرى. توقف عند أي مكتب للبرقيات أيها السائق! سنحتفظ بتوبي؛ فقد نحتاج إليه مرةً أخرى.»

توقفنا عند مكتب بريد شارع جريت بيتر، وأرسل هولمز برقية، ثم سألني ونحن نُتابع رحلتنا: «لمن تظن أني أرسلت ذلك؟»

«ليس لديَّ أدنى فكرة.»

«أتذكر قسم التحقيقات بشرطة شارع بيكر الذي استعنتُ به في قضية جيفرسون هوب؟»

قلت ضاحكًا: «أجل.»

«قد تكون مساعدتهم لا تُقدَّر بثمن في هذا النوع من القضايا. وإن فشلوا، فلديَّ مواردُ أخرى، ولكني سأُجرِّب حظي معهم أولًا. كانت تلك البرقية للملازم الصغير الشقي ويجنز، وأتوقع أن يأتي إلينا هو وعصابته حتى قبل أن نُنهي إفطارنا.»

كانت الساعة بين الثامنة والتاسعة وكنت أشعر بوطأة الأحداث المتتابعة المثيرة لتلك الليلة عليَّ. كنت أشعر بالوهن والإرهاق؛ فكان عقلي مشوشًا وجسدي متعبًا. لم أكن أتمتَّع بالحماسة المهنية التي كانت تُحرِّك رفيقي، ولا كنتُ أنظر للأمر باعتباره مجرد مشكلةٍ منطقيةٍ مجردة. فبالنسبة إلى مقتل بارثلوميو شولتو، لم أسمع عنه كلامًا جيدًا؛ ومِن ثمَّ لم أحملْ أيَّ ضغينة شديدة لقاتليه. أما بالنسبة إلى الكنز، فالأمر مُختلِف؛ فهذا الكنز، أو جزء منه، يحق للآنسة مورستان. وما دام يوجد أمل في استرجاعه، فأنا مستعدٌّ لأن أُكرِّس حياتي لتلك الغاية. صحيح أني إن وجدته فلن أطالها أبدًا، ولكن سيكون حبِّي أنانيًّا وحقيرًا إن تركت تلك الفكرة تؤثر عليه. فإذا كان هولمز يعمل جاهدًا على إيجاد المجرمين، فلديَّ دافعٌ أقوى بأضعاف لإيجاد الكنز.

في شارع بيكر، ساعدني الاستحمام وتبديل ملابسي كثيرًا على استعادة نشاطي. وعندما نزلت إلى غرفتنا وجدت الإفطار مُعَدًّا وهولمز يصب القهوة.

قال ضاحكًا وهو يشير إلى صحيفةٍ مفتوحة: «ها قد رتب جونز المتحمِّس والمراسل الصحفي النشيط الأمر فيما بينهما. ولكنَّك نلتَ كفايتك من تلك القضية، ومن الأفضل لك أن تتناول البيض ولحم الخنزير المملَّح أولًا.»

أخذت منه الصحيفة وقرأت الخبر العاجل تحت عنوان «لغز غامض في أبر نوروود». تقول صحيفة ذا ستاندرد:

في حوالي الساعة الثانية عشرة مساءً أمس، عُثر على السيد بارثلوميو شولتو الذي يقطن في بونديتشري لودج بأبر نوروود ميتًا في غرفته في ظلِّ ملابسات تُشير إلى وقوع جريمة قتل. وبحسب ما وردنا، لم توجد أي آثار عنفٍ فعلية على جثة السيد شولتو، ولكن اختفت مجموعة من المجوهرات الهندية التي ورثَها المتوفَّى عن أبيه. كان السيد شيرلوك هولمز والدكتور واطسون هما أول من اكتشف الجثة، وقد كانا يزوران المنزل بصحبة السيد ثاديوس شولتو شقيق المتوفَّى. ولحسن الحظ، تصادف وجود السيد أثيلني جونز، عضو جهاز شرطة التحقيقات المعروف، في قسم شرطة نوروود، ووصل إلى مكان الحادث في غضون نصف ساعة من البلاغ الأول. وفور وصوله، وجَّه ملكاته المتمرِّسة والمحنَّكة صوب اكتشاف الجناة، وقد أتى ذلك بنتائجَ مثمرةٍ؛ فقد اعتقل الأخ ثاديوس شولتو ومعه مدبِّرة المنزل السيدة بيرنستون، وكذلك خادم هندي يُدعى لال راو، والبواب أو حارس البوابة ويُدعى مكموردو. من المؤكَّد أن السارق أو السارقين كانوا يعرفون المنزل جيدًا؛ فخبرة السيد جونز المهنية التي يشتهر بها وقوة ملاحظته مكَّناه من الإثبات على نحو لا يدع مجالًا للشك أن الجناة لا يُمكن أن يكونوا قد دخلوا من الباب أو من النافذة، وأنهم لا بد أن يكونوا قد صعدوا إلى سطح المبنى ومنه دخلوا عبر بابٍ أفقي إلى غرفةٍ متَّصلة بتلك التي وجدت بها الجثة. وهذه الحقيقة المؤكَّدة تثبت بشكلٍ قاطع أن الأمر لم يكن مجرد حادث سرقة عرضي. وأثبت رد الفعل اليقظ والنشيط لرجال القانون الفائدة العظيمة من وجود عقلٍ نشط وبارع في مثل تلك الحالات. نَعتقِد أن ذلك حجة على من يدعون إلى تقليل أهمية محققينا، لكي يتمكَّنوا من العمل بفعالية وعن قرب أكثر على القضايا التي من واجب المحقِّقين العمل عليها.

قال هولمز وهو يَبتسِم ابتسامةً عريضة من خلف فنجان قهوته: «أليس مقالًا رائعًا؟ ما رأيك فيه؟»

«أعتقد أننا نجونا بأعجوبة من الاعتقال بتُهمة ارتكاب هذه الجريمة.»

«وأنا أيضًا أعتقد هذا، فأنا لا أضمَن أننا سنكون بمأمن إن انتابته نوبةٌ أخرى من نوبات نشاطه تلك.»

في تلك اللحظة ارتفع صوت جرس الباب وسمعتُ السيدة هادسون، صاحبة المنزل، ترفع صوتها بعويل احتِجاج وفزع.

قلت وأنا أستعد للنهوض: «بحق السماء يا هولمز، أعتقد أنهم يُطاردوننا حقًّا.»

«لا، الأمر ليس بهذا السوء. إن هذا هو جهاز الشرطة غير الرسمي؛ قوات شارع بيكر غير النظامية.»

بينما كان يتحدَّث، تعالى وقعُ أقدامٍ حافيةٍ رشيقة على السلالم، وجلجلة أصواتٍ عالية، ثم دخل علينا دستة من الأطفال المشرَّدين المتَّسخين الرثِّي الثياب. وعلى الرغم من دخولهم الصاخب، أظهروا قدرًا من الانضباط بينهم؛ فقد اصطفُّوا على الفور في صفٍّ واحد أمامنا ووقفوا يتطلَّعون إلينا بوجوهٍ مُترقِّبة. تقدَّم أحدهم، وكان الأطول والأكبر عمرًا بينهم، بتلكؤ فيه قدر من التعالي، كان من المُضحِك جدًّا أن يتمتَّع به مثل هذا الولد الهزيل زريِّ الهيئة.

قال: «لقد تلقيتُ رسالتك يا سيدي. وأحضرتهم معي في الموعد. ثلاثة شلنات ونصف الشلن مقابل التذاكر.»

قال هولمز وهو يناوله بعض العملات الفضية: «تفضَّل. فيما بعدُ يمكنهم أن يبلغوك بالتطورات؛ وأنت بدورك تبلغني إياها يا ويجنز. فلن أسمح بأن يقتحموا المنزل بهذه الطريقة. ومع ذلك، من الأفضل أنكم أتيتم حتى تسمعوا جميعًا التعليمات. أنا أريد معرفة مكان زورقٍ بخاريٍّ يدعى «أورورا»، صاحبه يدعى موردكاي سميث، والزورق لونه أسود بخطَّين أحمرَين ومدخنته سوداء وبها شريطٌ أبيض. إن هذا الزورق في مكان ما بالنهر. أريد أن يبقى أحد الأولاد عند مرسى موردكاي قبالة ميلبانك لإبلاغي حال عودة الزورق. قسِّموا عملية البحث بينكم، وفتِّشوا الضفتَين بدقة، وأبلغوني على الفور بأي تطورات. هل كلامي واضح؟»

قال ويجنز: «نعم أيها الزعيم.»

«سأُعطيكم الأجر المعتاد، وجنيهٌ مكافأة لمن سيجد الزورق، وهذا أجر يوم مقدَّمًا. والآن هيا انطلقوا!» أعطى كلًّا منهم شلنًا وانطلقوا ينزلون السلالم بسرعة ثم رأيتهم بعد لحظات يتدفَّقون في الشارع.

قال هولمز وهو ينهض من أمام الطاولة ويُشعل غليونه: «إذا كان ذلك الزورق على سطح الماء فسيجدونه حتمًا؛ فهم لديهم القدرة على الذهاب لأي مكان، ورؤية كل شيء، وسماع ما يدور بين الناس. أتوقَّع أن يُخبروني أنهم عرفوا مكان الزورق قبل أن يحلَّ

المساء. وفي تلك الأثناء لا يسعنا إلا أن ننتظر النتائج؛ فلا يُمكننا التقاط طرف الخيط المقطوع حتى نجد الزورق «أورورا» أو السيد موردكاي سميث.»

«أعتقد أنه يُمكن لتوبي أن يأكل بقايا الطعام تلك. هل ستخلد للنوم يا هولمز؟»

«لا، لست متعبًا؛ فبِنيتي الجسدية غريبة؛ فأنا لا أذكر أني شعرت أبدًا بالتعب من العمل، مع أن الخمول يُرهقني تمامًا. سوف أُدخِّن وأفكِّر في تلك القضية الغريبة التي أتت إلينا بها عميلتي الحسناء. من المفترض أن تكون مهمَّتنا هذه أسهل ما يكون؛ فذوي الأرجل الخشبية ليسوا كثيرين، لكنني أعتقد أن الرجل الآخر فريد من نوعه تمامًا.»

«الرجل الآخر مجددًا!»

«لا أريد أن أجعل منه لغزًا، على الأقل بالنسبة إليك. لكنك حتمًا كوَّنت رأيًا عنه، انظر إلى البيانات. آثار أقدامٍ صغيرة، وأصابع أقدام لم تُوضع قط داخل حذاء، وأقدامٌ حافية، والهراوة ذات الرأس الحجري، وخفَّة في الحركة، وأسهم صغيرة مسمَّمة؛ ماذا تستنتج من كل هذا؟»

صحتُ مندهشًا: «رجلٌ بدائي! ربما كان أحد شركاء جوناثان سمول الهنود.»

قال: «ليس صحيحًا، عندما رأيت آثارًا لأسلحةٍ غريبة ملتُ إلى اعتقاد ذلك، لكن طبيعة آثار الأقدام الغريبة دفعتْني إلى تغيير رأيي؛ فبعض سكان شبه الجزيرة الهندية هم رجال ضئيلو الحجم، لكن ليس لدرجة أن يتركوا آثار أقدام كتلك. فالهندوس الأصليون أقدامهم طويلة ونحيفة، والمسلمون منتعلو الخف يكون أصبع قدمهم الكبير بعيدًا عن الأصابع الأخرى، لأن سير الخف عادةً ما يمرُّ بينه وبينها. وهناك طريقة واحدة فقط لإطلاق هذه الأسهُم الصغيرة؛ لقد أُطلقت من قصبة نفخ. إذن أين نجد رجلنا البدائي هذا؟»

قلت مُخمِّنًا: «أمريكا الجنوبية.»

مدَّ يده لأعلى والتقط مجلَّدًا ضخمًا من الرفِّ، «هذا هو المجلد الأول من معجمٍ جغرافي يُنشر حاليًّا. ويمكن اعتباره أحدث مرجع، ماذا لدينا هنا؟ «جزر أندمان، تقع على بُعد ٣٤٠ ميلًا شمال سومطرة في خليج البنغال.» حسنًا! ما هذا كله؟ «مناخٌ رطب، وشعابٌ مرجانية، وأسماك قرش، ومدينة بورت بلير، وثكنات للمساجين، وجزيرة روتلاند، وأشجار الحور.» حسنًا! ها قد وصلنا: «يمكن اعتبار السكان الأصليين لجزر أندمان العرق الأضأل جسديًّا على الأرض، مع أن بعض علماء الأنثروبولوجيا يقولون إنَّ قبائل البوشمن الأفريقية، وقبائل هنود ديجر الأمريكية، وسكان تيرا ديل فويجو أكثر

ضآلة. إن متوسط طول الفرد أقل من أربعة أقدام، مع أنه قد يوجد أفرادٌ بالغون طولهم أقل من ذلك بكثير. وهم شعبٌ شرس وغير ودود وصعب المراس، ومع ذلك لديه القدرة على تكوين علاقات صداقةٍ مُخلِصة عند كسب ثقته.» تذكر ذلك يا واطسون. والآن، استمع لهذا: «هم شعبٌ قبيح المظهر بطبيعتهم؛ فرءوسهم كبيرة وغير منتظمة الشكل، وأعينهم صغيرة وشرسة، وملامحهم مشوَّهة. أيديهم وأقدامهم صغيرة بشكلٍ ملحوظ. وهم قومٌ شرسون ومتوحِّشون، لدرجة أن جميع جهود المسئولين البريطانيين لكَسبِهم في صفهم فشلت تمامًا. طالما كانوا مصدر رعب لأطقم السفن الغرقى؛ حيث يَضربون رءوس الناجين منهم بهراواتهم ذات الرءوس الحجرية، أو يُطلقون عليهم أسهمهم المسمَّمة. وتنتهي هذه المذابح البشرية دائمًا باحتفال لأكل لحوم الضحايا.» يا لهم من أشخاصٍ لطفاءَ وودودين يا واطسون! لو تُرك ذلك الرجل ليتصرف على هواه دون تدخل، لاتخذت تلك القضية مَنحًى أفظع من ذلك بكثير. أعتقد أنه على الرغم من كل شيء، كان جوناثان سمول على استعداد لأن يُضحِّي بالكثير مقابل ألا يستعين به.»

«لكن كيف انتهى به الأمر بصحبة رفيقٍ فريد جدًّا كهذا؟»

«حسنًا، لا يمكنني الإجابة عن هذا السؤال. لقد أقررنا بالفعل أن سمول قد أتى من جزر أندمان؛ لذا ليس من الغريب أن يصحب معه أحد سكان الجزيرة. وبلا شك سنعرف جميع التفاصيل في الوقت المناسب. اسمعني يا واطسون، أنت تبدو مرهقًا جدًّا. تَمدَّدْ هنا على الأريكة لنرى إن كنتُ أستطيع مساعدتك على النوم.»

التقط كمانه من ركن الغرفة وحين استلقَيتُ، بدأ يعزف لحنًا هادئًا حالِمًا عذبًا، لا شك أنه من تأليفه؛ فلديه موهبةٌ فذَّة في الارتجال. أذكر بالكاد أطرافه النحيلة، ووجهه الجدي، وقوس كمانه وهو يعلو ويهبط. ثم شعرت وكأنني أطفو بعيدًا بسلام على صفحة بحرٍ هادئ من الأنغام، حتى وصلت إلى أرض الأحلام، ورأيت وجه ماري مورستان العذب ينظر إليَّ.

الفصل التاسع

الحلقة المفقودة

استيقظتُ في وقتٍ متأخر بعد الظهر، وقد استعدت قوَّتي ونشاطي. كان شيرلوك هولمز جالسًا بالضبط كما تركته، إلا أنه نحَّى الكمان جانبًا وكان متعمِّقًا في قراءة كتاب. نظر إليَّ وأنا أتحرك ولاحظتُ أن وجهه كان حزينًا ومضطربًا.

قال: «لقد غططتَ في نومٍ عميق، وخشيتُ أن يوقظك حديثنا.»

أجبته: «لم أسمع شيئًا. هل جاءتك أخبارٌ جديدة إذن؟»

«للأسف لا، وأُقرُّ بأن ذلك يدهشني ويُخيِّب أملي؛ فقد توقعت أن يأتيني خبر مؤكد بحلول هذا الوقت. أتى ويجنز منذ قليل ليُخبرني بالتطورات. يقول إنهم لم يجدوا أي أثر للزورق. وهو خبرٌ مثير للحنق؛ فكل ساعة تمرُّ لها أهمية.»

«هل يوجد ما يمكنني فعله؟ لقد استعدت نشاطي الآن، وأصبحت مستعدًّا للانطلاق في رحلةٍ ليليةٍ جديدة.»

«لا، لا يوجد ما يُمكننا فعله سوى الانتظار؛ إن خرجْنا فقد يأتي الخبر في غيابنا، وسيؤدِّي ذلك لحدوث تأخير. بإمكانك أن تفعل ما شئت، لكني أنا يجب أن أنتظر هنا متأهِّبًا.»

«إذن سأذهب إلى كامبرويل وأمرُّ على السيدة سيسِل فورستر، فقد طلبت مني ذلك أمس.»

سألني هولمز وقد لمعت في عينَيه ابتسامة: «على السيدة سيسِل فورستر؟»

«حسنًا، وعلى الآنسة مورستان أيضًا بالطبع؛ فقد كانتا متشوقتَين لسماع ما حدث.»

قال هولمز: «أنصحك بألا تَسترسِل في التفاصيل؛ فالنساء لسنَ جديرات بالثقة المطلقة، حتى أفضلهن.»

لم أتوقَّف لأجادله في رأيه المريع هذا، بل قلت مُعلِّقًا: «سوف أعود في غضون ساعة أو اثنتين.»

«حسنًا، حظٌّ سعيد! لكن إن كنتَ ستَعبُر إلى الجهة المقابلة من النهر، فهلا أعدت توبي إلى صاحبه؟ لا أعتقد أننا سنحتاج إليه قريبًا.»

وعليه أخذتُ الكلب الهجين وسلَّمته لصاحبه عالم الطبيعة بمنزله في بينشن لين، وأعطيته كذلك نصف جنيه ذهبي. وفي كمبرويل وجدت الآنسة مورستان لا تزال مرهَقة قليلًا جراء مغامراتنا مساء أمس، ولكنها كانت مُتشوِّقة جدًّا لسماع الأخبار، وكان الفضول يتملَّك السيدة فورستر كذلك. أخبرتهما بجميع ما فعلناه، ولكني حذفت التفاصيل البغيضة من تلك المأساة؛ فعلى الرغم من أني حكيتُ لهما عن موت السيد شولتو، لم أذكر بالتحديد الطريقة التي مات بها. ومع أني حذفت الكثير من تفاصيل القصة، ظل هناك ما يكفي لإثارة دهشتهن وذهولهن.

صاحت السيدة فورستر: «إنها بمثابة قصةٍ رومانسية! سيدة في مأزق، وكنز قيمته نصف مليون، وآكل لحوم بشر أسود اللون، وشرير بساقٍ خشبية. إنهما بمثابة التنين أو الإيرل الشرير التقليديَّين.»

أضافت الآنسة مورستان قائلة وهي ترمقني بنظرةٍ فرحة: «وفارسان مغواران يتدخلان لإنقاذها.»

«صحيح يا ماري، إنَّ حظك يعتمد على عملية البحث تلك. لا أرى أنك متحمسة بالدرجة الكافية. تخيَّلي كيف سيكون حالك وأنت بهذا الثراء الفاحش، والعالم كله تحت قدمَيك!»

انشرح صدري قليلًا عندما لاحظت أنه لم يبدُ عليها علامات الابتهاج أمام هذا الاحتمال، بل على العكس، ألقت برأسها الأبيِّ للخلف وكأن الأمر لا يعنيها كثيرًا، ثم قالت: «ما يُثير قلقي هو السيد ثاديوس شولتو. لا يعنيني أي شيءٍ آخر. أرى أنه تصرف بلطف ونُبْل بالغ منذ البداية؛ لذا من واجبنا أن نبرئ ساحته من تلك التهمة الشنيعة التي لا أساس لها من الصحة.»

كان المساء قد حلَّ عندما غادرت كامبرويل، وكان الظلام قد خيَّم عندما وصلت إلى البيت. وجدت كتاب رفيقي وغليونه بجوار كرسيه، ولكني لم أجده هو. بحثتُ حولي على أمل أن يكون قد ترك ملاحظة، لكني لم أجد شيئًا.

قلت للسيدة هادسون عندما صعدتْ لتغلق الستائر: «أرى أن السيد شيرلوك هولمز قد خرج.»

«كلا يا سيدي، لقد ذهب إلى غرفته.» ثم قالت وقد خفضت صوتها إلى همسٍ خافتٍ جدًّا: «أتدري يا سيدي، أنا قلقة على صحته.»

«وما سبب ذلك يا سيدة هادسون؟»

«حسنًا، إنه يتصرَّف بغرابة يا سيدي؛ فبعد أن غادرتَ، ظل يمشى ويمشي جيئة وذهابًا حتى أتعبني صوت وقع أقدامه. ثم سمعتُه يُحدِّث نفسه ويتمتم، وفي كل مرة يرن فيها جرس الباب، كان يخرج إلى أعلى السلم ويسأل: «من هناك يا سيدة هادسون؟» وبعد ذلك اندفع إلى غرفته، ولكني لا أزال أسمعه يجوبها مثل ذي قبل. آمُلُ ألا تكون هذه مقدمات مرضٍ يا سيدي. تجرَّأتُ وقلت له شيئًا عن علاج للحمَّى، لكنه التفت إليَّ بنظرة أربكتْني حتى إني لا أعرف كيف غادرتُ الغرفة.»

أجبتها قائلًا: «لا أظن أنه يوجد ما يَستدعي قلقك يا سيدة هادسون. لقد رأيته على ذلك الحال من قبلُ. فيوجد أمرٌ بسيط يشغل باله وهو ما يجعله مضطربًا.» حاولت أن أتحدث إلى صاحبة المنزل الفاضلة دون أن يبدو عليَّ الاكتراث، لكني أنا أيضًا انتابني القلق قليلًا عندما كنت أسمع وقع خطواته الرتيب من آنٍ لآخر طوال تلك الليلة الطويلة، وأعرف أن روحه المتحمسة تثور ضد ذلك الخمول الاضطراري.

في أثناء تناولنا الإفطار، بدا مرهقًا ومُنهَكًا، وعلى وجنتَيه احتقانٌ محموم.

قلت مُعلِّقًا: «أنت تُنهِك نفسك أيها العجوز؛ فقد سمعتك تمشي جيئة وذهابًا طوال الليل.»

أجاب: «لم أستطع النوم؛ فهذه المشكلة البغيضة تستنفد طاقتي. وأنا لا أحتمل أن تعترضني عقبةٌ تافهة كتلك بعد أن تخطَّيتُ جميع العقبات الأخرى؛ أنا أعرف الرجلين، والزورق، وكل شيء، ومع ذلك فشلتُ في الحصول على أي أخبار. لقد استعنتُ بهيئاتٍ أخرى لتشارك في البحث، واستخدمت جميع الوسائل المتاحة أمامي. لقد فُتِّش النهر بأكمله بكلتا ضفتيه، ولكن لم تَرِد أيُّ أخبار عنهما، ولم تصل السيدةَ سميث أيضًا أيُّ أخبار عن زوجها. قريبًا لن يكون أمامي إلا أن أستنتج أنهم أغرقوا الزورق، لكن هناك ما ينفي هذا.»

«أو أن السيدة سميث وضعتْنا على الطريق الخاطئ.»

«كلا، أعتقد أن هذا احتمالٌ غير وارد. لقد أجريت تحريات وعرفت أن هناك زورقًا بتلك المواصفات.»

«هل من الممكن أن يكون قد ذهب في الاتجاه الآخر من النهر؟»

«لقد فكرت في ذلك الاحتمال أيضًا، وتوجد فرقة بحث تسير في ذلك الاتجاه حتى ريتشموند. وإن لم تَرِد أي أخبار اليوم، فسأنطلق بنفسي غدًا، لكني سأبحث عن الرجلَين لا القارب. لكن حتمًا سيأتينا خبرٌ ما.»

إلا أن هذا لم يحدث؛ فلم تردنا أي أخبار من ويجنز ولا من الجهات الأخرى. ظهرت مقالات في معظم الصحف عن مأساة نوروود، واتخذت جميعها نبرةً معادية لثاديوس شولتو التعيس الحظ. ولم يتضمَّن أيٌّ منها تفاصيلَ جديدةً، إلا أن ثمة تحقيقًا سيُجرى في اليوم التالي. مشيتُ إلى كامبرويل مساءً لأبلغ السيدتَين بعدم إحرازنا لأي تقدُّم، وعند عودتي وجدت هولمز مغمومًا وواجمًا بعض الشيء. كان بالكاد يرد على أسئلتي، وانشغل طوال المساء بتحليلٍ كيميائيٍّ معقَّد تضمَّن تسخينًا لأوعية تقطير، وتقطير أبخرة، وانتهى أخيرًا برائحةٍ شنيعة دفعتني لمغادرة الشقة. حتى ساعات الصباح الأولى كنت أسمع طنين أنابيب اختباره؛ مما أعلمني أنه لا يزال منشغلًا بتلك التجربة الكريهة الرائحة.

وفي الصباح الباكر استيقظت مفزوعًا، واندهشت لرؤيته يقف بجوار سريري في زي بحارٍ بسيط، ويرتدي سترة بحار صوفية، ويلفُّ وشاحًا أحمر خشنًا حول عنقه.

قال: «أنا ذاهب إلى النهر يا واطسون. لقد قلَّبتُ الأمر في رأسي، ولا أرى إلا حلًّا واحدًا. الأمر يستحق المحاولة على أيِّ حال.»

قلت: «هل يُمكنني أن آتي معك إذن؟»

«كلا؛ فوجودك هنا بالنيابة عني سيكون أكثر فائدة. فأنا أكره أن أذهب، لأنه من المرجَّح أن تأتي رسالة خلال اليوم، مع أن ويجنز كان يائسًا من الأمر ليلة أمس. أريدك أن تفتح جميع الملاحظات والبرقيات التي تردني، وتتصرَّف حسب ما تراه صحيحًا حال وردت أي أخبار. هل يمكنني الاعتماد عليك؟»

«بكل تأكيد.»

«للأسف لن يكون بإمكانك أن ترسل لي برقية لأني لا أعرف إلى أين ستأخذني رحلتي، لكن إن حالفني الحظ، فلن أغيب لفترة طويلة. وسأكون عندها قد توصَّلت لمعلومات من أي نوع قبل أن أعود.»

حتى موعد الإفطار، لم تكن قد وصلتني منه أي أخبار. وعندما فتحتُ صحيفة ذا ستاندرد، وجدت تنويهًا جديدًا عن الموضوع. كان يقول: «فيما يتعلق بالمأساة التي وقعت في أبر نوروود، لدينا ما يدعو للاعتقاد بأن الأمور ستأخذ مجرًى أعقد وأكثر غموضًا مما ظنناه في البداية؛ فتُشير أدلةٌ جديدة إلى استحالة أن يكون للسيد ثاديوس شولتو يدٌ

في الأمر. فقد أُطلق سراحه مساء أمس هو ومدبِّرة المنزل السيدة بيرنرستون. لكن يُعتقد أن الشرطة لديها دليل على هوية المجرمين الفعليِّين، وأن السيد أثليني جونز من شرطة سكوتلانديارد يتتبعه بنشاطه وحنكته المعروفَين. ومن المتوقع أن تحدث عمليات اعتقال جديدة في أي لحظة.»

قلت في نفسي: «هذا خبرٌ مُرضٍ إلى حدٍّ ما؛ فعلى الأقل أصبح صديقنا شولتو بأمان. تُرى ما هذا الدليل الجديد، مع أن هذا الكلام يتكرر كلما ارتكبت الشرطة غلطةً فادحة.»

ألقيت بالصحيفة على الطاولة، لكن في تلك اللحظة وقعتْ عيناي على إعلان في عمود الإعلانات الشخصية. كان نصه كما يلي:

> مفقود! غادر المراكبي موردكاي سميث وابنه جيم رصيف مرفأ سميث في حوالي الساعة الثالثة صباح يوم الثلاثاء الماضي في الزورق البخاري الذي يُدعى «أورورا». الزورق لونه أسود وبه خطَّان باللون الأحمر ومدخنتُه سوداء وبها شريطٌ أبيض. تُدفع مكافأة قيمتها خمسة جنيهات لمن يُدلي بمعلومات عن مكان موردكاي سميث والزورق «أورورا» للسيدة سميث عند رصيف مرفأ سميث، أو في العنوان ٢٢١ بي شارع بيكر.

كان من الواضح أن هذا من فعل هولمز؛ فوجود عنوان شارع بيكر كان كافيًا لإثبات ذلك. بدت لي فكرة عبقرية؛ لأن المجرمين الهاربين إذا قرءوه فلن يروا فيه أكثر من قلق زوجة طبيعي على زوجها المفقود.

مر النهار ببطء؛ وفي كل مرة أسمع طرْقًا على الباب أو وقع خطواتٍ ثقيلة في الشارع، كان يُخيَّل لي إما أن هولمز قد عاد أو أن أحدًا جاء ليردَّ على الإعلان الذي نشره. حاولت أن أقرأ، لكن عقلي كان يشرد إلى مهمَّتنا الغريبة وإلى المجرمَين غير المتوائمَين اللذين نبحث عنهما. تساءلتُ عن احتمال وجود خللٍ جسيم في استدلالات رفيقي المنطقية. هل من المُحتمَل أن يكون ضحية لخداع النفس؟ أليس من المُمكِن أن يكون عقله الفطن والمُبتكِر قد بنى تلك النظرية الجامحة على فرضياتٍ غير سليمة؟ لم أعهدْه مخطئًا من قبلُ، ولكن حتى أكثر المفكِّرين حذاقةً قد ينخدع أحيانًا. وفي اعتقادي أنه يَحتمل أن يكون قد وقع في خطأ بسبب تحرِّيه الدقة الزائدة في تحليله المنطقي، ورغبته في صياغة تفسيرٍ معقد وغريب حتى عند وجود تفسيرٍ عادي وبسيط نصب عينَيه. ولكني على صعيد آخر، رأيتُ بنفسي الأدلة، وسمعت الحجج المنطقية التي بنى عليها استنتاجاته. وحين أسترجع

السلسلة الطويلة من الملابَسات الغريبة، التي يبدو الكثير منها تافهًا في ذاته، لكنَّها جميعًا تسير في نفس الاتجاه، لا يسعني أن أُنكر أنه حتى إن كان تفسير هولمز غير صحيح، فالتفسير الحقيقي لا بد أنه على نفس الدرجة من الغرابة والإثارة للدهشة.

في الساعة الثالثة، علا دويُّ الجرس، وسمعتُ صوت آمر في الردهة، ولدهشتي وجدت السيد أثيلني جونز ذاته يَصعد إليَّ. ولكنه بدا مختلفًا تمامًا عن أستاذ المنطق الحادِّ والبارع الذي تولى القضية بكل ثقة في أبر نوروود، فقد كان يبدو مغتمًّا، وكان أسلوبه خانعًا واعتذاريًّا.

قال: «طاب يومك يا سيدي. طاب يومك. السيد شيرلوك هولمز ليس هنا، أليس كذلك؟»

«أجل، ولا أعرف متى سيعود، لكن بإمكانك انتظاره إن أردت، تفضَّل بالجلوس في هذا الكرسي، وجرِّب سيجارًا من تلك.»

قال وهو يَمسح وجهه بمنديلٍ أحمرَ كبير: «شكرًا لك، لا أمانع ذلك.»

«هل ترغب في تناول الويسكي الممزوج بالصودا؟»

«حسنًا، نصف كوب؛ فالجو حارٌّ جدًّا بالنسبة إلى ذلك الوقت من السنة، ولديَّ أمورٌ كثيرة تشغل بالي وتُرهقني. أنت تعلم نظريتي بشأن قضية نوروود، أليس كذلك؟»

«أذكر أنك طرحت واحدة.»

«حسنًا، لقد أُجبِرت على إعادة النظر فيها. فما كدت أن أُضيِّق شباكي حول السيد شولتو حتى نفذ من خلال فتحة بها؛ فقد استطاع أن يأتي بحجة غياب لا غبار عليها. فمنذ أن غادر غرفة أخيه، لم يغبْ عن نظر شخص أو اثنين؛ لذا لا يمكن أن يكون هو من تسلَّق إلى السطح ودخل عبر الباب الأفقي. إن هذه القضية غامضة جدًّا، وهي تضع سمعتي المهنية على المحك؛ ولهذا سيُسعدني جدًّا الحصول على بعض المساعدة.»

قلت: «جميعنا نحتاج إلى المساعدة في بعض الأحيان.»

قال بصوتٍ أجشَّ مكتوم: «صديقك السيد شيرلوك هولمز رجلٌ مُدهِش يا سيدي؛ فهو رجل لا يُهزَم. لقد رأيت ذلك الشاب يتولى قضايا كثيرة، لكني لم أره أبدًا يفشل في التوصُّل لحل أيٍّ منها. لديه أساليبُ غير عادية، وربما يكون متسرِّعًا إلى حدٍّ ما في تكوين نظرياته، لكن في المجمل أعتقد أنه كان يُمكن أن يصبح ضابطًا واعدًا، ولا أمانع إبداء رأيي ذلك أمام أي أحد. لقد تلقيتُ برقية منه هذا الصباح، فهمت منها أنه حصل على دليل ما في قضية شولتو تلك. ها هي ذي البرقية.»

أخرج البرقية من جيبه وناولني إياها. كانت مرسلة من منطقة بوبلار في الساعة الثانية عشرة. كانت تقول: «اذهب إلى شارع بيكر على الفور. إذا لم أكن قد عدتُ بعدُ، فانتظرني. لقد أوشكت أن أصل إلى عصابة قضية شولتو. يُمكنك أن تأتي معنا الليلة إذا كنت تريد أن تكون موجودًا عند خط النهاية.»

قلت: «هذا يبدو جيدًا؛ فيبدو أنه التقط طرف الخيط مرةً أخرى.»

قال جونز متعجِّبًا وقد بدا عليه الرضا: «إذن، فقد كان مخطئًا هو الآخر. فحتى الأفضل من بيننا يَضلُّون أحيانًا. بالطبع قد يكون هذا إنذارًا خاطئًا، لكن من واجبي باعتباري رجل قانون ألَّا أُفوِّت أي فرصة من تحت يدي. ثمة أحد بالباب، قد يكون هو.»

سمعنا وقع خطواتٍ ثقيلة تصعد السلم، وصوت أزيز وحشرجة أنفاس صاحبها وكأنما يواجه صعوبةً شديدة في التقاط أنفاسه. توقَّف لمرة أو مرتَين، وكأنما طريق الصعود شاقٌّ جدًّا عليه، ولكنه أخيرًا وصل إلى الباب ودخل. كان مظهره يتماشى مع الأصوات التي سمعناها، فقد كان رجلًا مسنًّا، يرتدي معطفَ بحار، وسترة بحار قديمة، أزرارها مغلقة حتى الياقة. كان ظهره مَحنيًّا، وركبتاه ترتعدان، وكان يلتقط أنفاسه بصعوبةٍ بالغة. كان مستندًا إلى هراوة من خشب البلوط، ورفع كتفَيه بجهد محاوِلًا سحب الهواء إلى رئتَيه. كان يلفُّ وشاحًا ملونًا حول رقبته، وكنت لا أرى من وجهه إلا عينَين سوداوَين ثاقبتَين يعلوهما حاجبان أبيضان كثيفان، وسالفَين رماديَّين طويلَين. وفي المجمل أعطاني الانطباع بأنه بحارٌ بارعٌ جدير بالاحترام وقع فريسة لكبر السن والفقر.

سألته: «ما الأمر يا سيدي؟»

تلفَّت حوله بأسلوب المسنِّين المنهجي البطيء.

قال: «هل السيد شيرلوك هولمز موجود؟»

«كلا، ولكني أنوب عنه. يمكنك أن تُخبرني بأيِّ رسالة تود تركها له.»

قال: «يجب أن أخبره هو بنفسه.»

«لكني أقول لك إني أنوب عنه. هل يتعلق الأمر بزورق موردكاي سميث؟»

«أجل؛ فأنا أعرف مكانه بالضبط، وأعرف مكان الرجلَين اللذين يبحث عنهما. وأعرف مكان الكنز، أعرف كل شيء عن ذلك الأمر.»

«إذن أخبرني وأنا سأخبره.»

كرَّر بإصرار العجائز النَّزِق: «يجب أن أخبره هو بنفسه.»

«إذن سيتعيَّن عليك انتظاره.»

«لا، لا، لن أضيع يومًا كاملًا إرضاءً لأحد. فإذا لم يكن السيد هولمز موجودًا، فسيتعين عليه اكتشاف الأمر كله بنفسه. أنا لا أعرف أيًّا منكما ولن أنطق بكلمة.»

جرَّ قدمَيه تجاه الباب، لكن أثيلني جونز سبقه إليه ووقف أمامه وقال: «انتظر قليلًا يا صديقي، فلديك معلوماتٌ مهمة ويجب ألا تنصرف. سوف نُبقيك هنا، شئتَ أم أبَيْت، حتى عودة صديقنا.»

شرع العجوز في الهرولة بعض الشيء نحو الباب، لكن عندما أسند أثيلني جونز ظهره العريض على الباب، أدرك أنه لا جدوى من المقاومة.

صاح وهو يُخبط الأرض بعصاه: «يا لحسنِ معاملتكم! لقد أتيت إلى هنا لأقابل رجلًا محترمًا وها أنتما، يا من لم أركُما في حياتي من قبلُ، تحتجزانني وتعاملانني بتلك الطريقة!»

قلت: «لن يصيبك أي سوء؛ فنحن سوف نُعوِّضك عن ضياع وقتك. اجلس هنا على الأريكة ولن تنتظر طويلًا.»

مشى متجهِّمًا وجلس دافنًا وجهه في راحتيه. تابعت أنا وجونز تدخين السيجار والحديث. لكن فجأة قاطعنا صوت هولمز قائلًا: «أعتقد أنه بإمكانك أن تعرض عليَّ سيجارًا أنا أيضًا.»

انتفضنا في كراسيِّنا؛ فقد كان هولمز يجلس بالقرب منَّا ويبدو عليه الاستمتاع.

قلت متعجبًا: «هولمز! أأنتَ هنا؟ ولكن أين العجوز؟»

قال وهو يمسك بكومة من الشعر الأبيض: «ها هو العجوز، ها هو الشعر المُستعار، والسالفان والحاجبان وكل شيء. كنت أعرف أن تنكُّري جيد للغاية، ولكني لم أتوقع أن يجتاز ذلك الاختبار.»

صاح جونز بسرورٍ بالغ: «أيها المحتال! كنت ستُصبِح ممثلًا فذًّا؛ فقد قلَّدت سعال من يعيشون في ملاجئ الفقراء بالضبط، وتقليدك لتلك المشية الواهنة يستحقُّ عشرة جنيهات في الأسبوع. ولكني أعتقد أنني تعرفت على لمعة عينَيك، ولم تُفلِت منا بتلك السهولة كما ترى.»

قال وهو يشعل سيجارًا: «كنتُ أعمل على ذلك المظهر التنكري طوال اليوم. فكما تريان، قد أصبحتُ معروفًا لدى الكثير من الجماعات الإجرامية، خاصةً بعد أن نشر صديقي هذا بعض قضاياي؛ لذا لا يسعني أن أنزل إلى ساحة المعركة إلا بتنكُّرٍ بسيط كهذا. هل تلقيتَ برقيتي؟»

«أجل، ولذلك أتيت إلى هنا.»

«إلامَ آلت قضيتك؟»

«لم تؤلْ إلى شيء؛ فقد اضطررت للإفراج عن سجينين من السجناء، ولا يوجد أي أدلة تدين الاثنين الآخَرين.»

«لا تقلق، سنُعطيك سجينَين آخَرين مكانهما. لكن يجب عليك تنفيذ أوامري. يمكنك أن تنسب الفضل رسميًّا لنفسك، لكن يجب أن تتصرَّفَ وفق ما أقوله لك، اتفقنا؟»

«بالطبع، إن كنت ستُساعدني في الإمساك بالرجلَين.»

«حسنًا إذن، في المقام الأول، أريد زورق شرطة سريعًا؛ زورقًا بخاريًّا، عند مرفأ وستمنستر ستيرز في الساعة السابعة.»

«يَسهُل تدبير ذلك، فعادة يوجد زورق في ذلك المكان طوال الوقت، لكن بإمكاني أن أعبر الشارع وأُجري مكالمةً هاتفية لأتأكد.»

«أريد كذلك رجلَين قويَّين، تحسُّبًا لحدوث مقاومة.»

«سيكون هناك رجلان أو ثلاثة في الزورق. وماذا أيضًا؟»

«عند القبض على الرجلَين، سنأخذ نحن الكنز. وأعتقد أن صديقي سيسرُّه أن يأخذ صندوق الكنز للشابة صاحبة الحق في نصفه. لتكن هي أول من يفتحه. ما رأيك يا واطسون؟»

«سيكون ذلك من دواعي سروري.»

قال جونز وهو يهزُّ رأسه: «هذا إجراءٌ غير عادي، لكن، الأمر برمَّته غير عادي، وأعتقد أنه بإمكاننا غضُّ الطرف عن ذلك. لكن يجب تسليم الكنز بعد ذلك للسلطات حتى انتهاء التحقيق الرسمي.»

«بالطبع، يسهل تدبير ذلك. توجد نقطةٌ أخيرة. أريد سماع بعض التفاصيل حول ذلك الأمر على لسان جوناثان سمول نفسه؛ فأنت تعرف أنني أحب أن أكتشف أدقَّ تفاصيل قضاياي. ألن تمانع أن أحظى بمقابلةٍ غير رسمية معه، سواء هنا في شقتي أو في أي مكانٍ آخر، ما دام أنه يخضع لحراسةٍ مشددة؟»

«حسنًا، أنت سيد الموقف. فأنا ليس لديَّ بعدُ أي دليل على وجود جوناثان سمول ذاك. لكن إن كان بإمكانك إلقاء القبض عليه، فلا أرى مانعًا من أن تجري معه مقابلة.»

«هل هذا مفهوم إذن؟»

«مفهوم تمامًا، ألديك أي طلباتٍ أخرى؟»

«فقط أصر على أن تتناول معنا العشاء؛ فسوف يكون جاهزًا في خلال نصف ساعة. لديَّ محار وزوج من طيور الطهيوج، وبعض الاختيارات القليلة من النبيذ الأبيض. أنت لم تعترف بعدُ يا واطسون بمهاراتي كمُدبِّر للمنزل.»

الفصل العاشر

نهاية رجل الجزيرة

كانت وجبتنا تبعث على السرور؛ فلدى هولمز القُدرة على أن يكون متحدِّثًا بارعًا إن أراد ذلك، وقد أراد ذلك تلك الليلة. بدا أنه في حالة نشاطٍ ذهنيٍّ عالٍ. لم أعهده قط يتحدث بهذه البراعة من قبلُ. تحدث عن عدة موضوعات في تتابعٍ سريع عن مسرحيات المعجزات، وعن الخزف في العصور الوسطى، وعن آلات الكمان من صنع ستراديفاريوس، وعن البوذية في سيلان، وعن سفن الحرب المستقبلية، وتحدَّث عن كلٍّ منها كأنه درسه بتمعُّن وتخصُّص. حلَّ حسه الفكاهي المتَّقد محلَّ أثر حالة الاكتئاب العميق التي انتابته في الأيام السابقة. واتَّضح أن أثيلني جونز رجلٌ اجتماعي في ساعات استرخائه، وكان يتعامل مع طعام العشاء بحسٍّ ذواقة. أما أنا فقد كنت أشعر بالسرور إزاء فكرة أن مهمَّتنا قاربت على الانتهاء، وانتابني شيء من سعادة هولمز. لم يتطرَّق أيٌّ منا أثناء تناول العشاء إلى السبب الذي اجتمعنا من أجله.

بعد أن رُفعت الأطباق من المائدة، نظر هولمز إلى ساعته، وصبَّ ثلاثة كئوس من النبيذ القوي، وقال: «نخب نجاح مهمَّتنا الصغيرة. والآن، حان وقت الانطلاق. هل معك مسدس يا واطسون؟»

«لديَّ مسدس الخدمة القديم في درج مكتبي.»

«أرى أن تأخذه معك إذن، فمن الأفضل أن نكون مُستعدِّين. أرى عربة الأجرة تنتظر أمام الباب؛ لقد طلبتُ أن تأتي في الساعة السادسة والنصف.»

كانت الساعة قد تخطَّت السابعة بقليل عندما وصلنا إلى مرفأ ويستمنستر، وهناك وجدنا الزورق بانتظارنا. نظر إليه هولمز متفحِّصًا وقال: «هل توجد أية علامة تدل على أنه زورقٌ تابع للشرطة؟»

«أجل، ذلك المصباح الأخضر على جانبه.»

«أَزِلْه إذن.»

نُفِّذ ذلك التغيير البسيط، ثم صعدنا على متنه، وفُكَّت الحبال. جلست أنا وجونز وهولمز في مؤخرة الزورق. وكان هناك رجل يتولى الدفة، ورجل يتولى تشغيل المحرِّكات، وجلس مفتِّشا شرطة ضخما البِنية في المقدمة.

سأل جونز: «إلى أين نتجه؟»

«إلى البرج، اطلب منهم أن يُوقِفوا الزورق قبالة ترسانة جاكوبسون للسفن.»

كانت مركبتنا سريعة للغاية. فمررنا بسرعة بجانب الصفوف الطويلة من الصنادل النهرية المحمَّلة بالبضائع كما لو كانت متوقِّفة. ابتسم هولمز ابتسامة رضا عندما أدركنا باخرةً نهرية وسبقْناها.

قال: «يُفترض أن نستطيع اللحاق بأي مركبة في النهر.»

«ليس تمامًا، لكن ليس هناك زوارقُ كثيرة بإمكانها أن تسبقنا.»

«ينبغي أن نَلحق بالزورق «أورورا»، وهو معروف بسرعته. سأشرَح لك الوضع الحالي يا واطسون. هل تذكر كم كنتُ منزعجًا من أن تعترض طريقي عقبةٌ صغيرة كتلك؟»

«نعم.»

«حسنًا، لقد منحت عقلي راحةً تامة بأن انغمستُ في إجراء تحليلٍ كيميائي. يقول أحد رجال السياسة ببلدِنا إنَّ تغيير طبيعة العمل هو أفضل راحة، وهو محقٌّ فعلًا؛ فعندما نجحتُ في إذابة الهيدروكربون الذي كنت أعمل عليه، عدت إلى قضية آل شولتو وفكرت في الأمر بأكمله بمنظورٍ جديد. لقد بحث صبياني في جميع أنحاء النهر ولم يجدوه. فلم يكن الزورق راسيًا في أي رصيف إنزال ولا مرفأ، كما أنه لم يَعُد إلى مرفئه الأصلي. ومع ذلك ليس من المرجح أن يكون المجرمون أغرقوه لإخفاء أثرهم، مع أن تلك الفرضية كانت ستظل قائمةً حال انتفاء جميع الاحتمالات الأخرى. كنت أعرف أن سمول ذلك يتمتع بدهاءٍ إجرامي، لكنني لم أتصور أن يكون قادرًا على القيام بشيء على ذلك المستوى العالي من المكر؛ فذلك عادة ما يكون نتاج مستوًى تعليميٍّ أفضل. ثم فكرت في أنه إن كان موجودًا بلندن منذ بعض الوقت — إذ لدينا دليل على أنه كان يراقب بونديتشري لودج باستمرار — فسيكون من الصعب أن يغادر على الفور؛ كان سيحتاج بعض الوقت، حتى وإن كان يومًا واحدًا؛ لترتيب أموره. هذا ما كانت تُرجِّحه كفَّة الاحتمال على أيِّ حال.»

قلت: «يبدو لي احتمالًا ضئيلًا؛ فعلى الأرجح أنه رتَّب أموره بالفعل قبل أن يبدأ حتى في مهمَّته.»

«لا أظن ذلك؛ فإن وكره هذا سيكون مخبأً قيمًا حال اضطرَّ إلى أن يتوقَّف قليلًا فيه حتى يتأكد من أنه يستطيع الاستغناء عنه. ومع ذلك تبادرت إلى ذهني فكرةٌ أخرى. لا بد أن جوناثان سمول شعر بأن مظهر رفيقه المميز، مهما حاول إخفاءه، سيُثير الأقاويل، وقد يربط الناس بينه وبين مأساة نوروود. كان يمتلك ما يكفي من الذكاء لإدراك ذلك. فقد انطلَقا من وكرهما في ظلام الليل، وكان يريد أن يعود قبل ضوء النهار. لكن حسبما قالت السيدة سميث، كانت الساعة قد تخطَّت الثالثة صباحًا عندما انطلَقوا بالزورق، وكان أمامهم ما يقرب من ساعةٍ واحدة قبل أن يسطع ضوء النهار ويكون الناس حولهم في كل مكان؛ لذا توصَّلت إلى أنه لا يمكن أن يكونوا قد ابتعدوا كثيرًا. لقد اشتريا صَمْت سميث بثمنٍ جيد، واحتفَظا بزورقه للهروب الأخير، وأسرعا عائدين إلى مسكنهما ومعهما صندوق الكنز. وبعد بضعة أيام، بعد أن يتسنَّى لهما أن يطَّلعا على الآراء التي تبنَّتها الصحف تجاه القضية، ويتأكدا من أنه لم تطلهما أيُّ شبهة، سوف ينطلقان تحت ستار الليل في طريقهما إلى سفينة في جريفسيند أو داونز، ولا شك أنهما قد رتبا للسفر على متنها إلى أمريكا أو أيٍّ من المستعمرات.»

«لكن ماذا عن الزورق؟ لا يمكن لهما أن يأخذاه معهما إلى مسكنهما.»

«هذا صحيح، فقد توصَّلت إلى أن الزورق لا بد أنه ليس ببعيد، مع أنه غير ظاهر. ثم وضعتُ نفسي مكان سمول ونظرتُ للأمر من وجهة نظر رجل بنفس قدراته. سيُفكِّر على الأرجح في أن إعادة الزورق أو الاحتفاظ به في مرفأ سيُسهِّل على الشرطة مطاردته حال تعقَّبتْه. إذن كيف يمكنه إخفاء الزورق مع إبقائه تحت تصرُّفه حين يحتاجه؟ تساءلت ماذا كنت سأفعل لو كنت في مكانه؟ ولم تخطر على بالي إلا طريقة واحدة. كنت سأوقف الزورق عند مُصنِّع أو مصلح مراكب، وأطلب منه إحداث تغييرٍ طفيف به. حينها سيأخذه إلى ورشته أو ترسانته، وبذلك سيختفي عن الأنظار تمامًا، لكن في نفس الوقت يمكن الحصول عليه في وقتٍ قصير عند طلبه.»

«يبدو هذا بديهيًّا جدًّا.»

«عادة تكون تلك الأشياء البديهية هي الأكثر عرضة لإغفالها. لكني أصررتُ على التصرف بناءً على تلك الفكرة. فانطلقتُ على الفور بزي البحار المسالم هذا، وسألت جميع ترسانات السفن على طول النهر. فشلتُ في إيجاده في خمس عشرة منها، لكن في السادسة عشرة — وهي ترسانة جاكوبسون — عرفت أنهم استلموا الزورق «أورورا» من رجلٍ له ساقٌ خشبية طلب بعض التغييرات الطفيفة في دفَّته. قال كبير العمال هناك: «لا يوجد

مشكلة في دفته. ها هو هناك، ذلك الزورق الذي به خطان أحمران.» وفي تلك اللحظة دخل موردكاي سميث، المالك المفقود للزورق بذاته. كان مخمورًا وبالتأكيد لم أكن لأعرفه لولا أنه صاح باسمه واسم زورقه بصوتٍ أجشّ وقال: «أريده الليلة في الساعة الثامنة؛ في تمام الثامنة لأن معي رجلَين لا يُطيقان الانتظار.» كان من الواضح أنهما دفعا له جيدًا؛ فقد كان مدجَّجًا بالمال، وكان يوزِّع الشلنات على العمال. تبعتُه قليلًا لكنه دخل إلى حانة؛ لذا عدت إلى الترسانة وقابلت صدفة أحد صبياني في طريقي وكلَّفته بمراقبة الزورق. فهو سيقف على حافة النهر ويُلوِّح لنا بمنديله عندما ينطلقون بالزورق. سنكون مختبئين في النهر، وسأستغرب إن لم نستطع الإمساك بالرجلَين والكنز وكل شيء.»

قال جونز: «لقد خططت للأمر بطريقةٍ جيدة جدًّا، سواء كانا هما الرجلَين المطلوبَين أم لا، لكن لو كان الأمر بيدي لأرسلت قوة شرطة إلى ترسانة جاكوبسون وألقيتُ القبض عليهما عندما يذهبان إلى هناك.»

«في هذه الحالة لن يذهبا أبدًا؛ فسمول هذا رجلٌ شديد الدهاء، فهو سيُرسِل شخصًا للاستطلاع أولًا، وإذا وجد ما يريبه فسيبقى مختبئًا لأسبوعٍ آخر.»

قلتُ: «لكن كان بإمكانك أن تتعقَّب موردكاي سميث حتى يَدلَّك على مخبئهما.»

«كنت سأُضيِّع يومي هباءً إن فعلتُ ذلك. فأعتقد أن احتمال أن يعرف سميث أين يقيمان ضئيلٌ جدًّا. فما دام لديه خمر وأجرٌ جيد، فلمَ يطرح الأسئلة؟ إنهما يرسلان له رسائل بالأوامر. لقد فكَّرتُ في كل الخطط الممكنة، وهذه أفضلها.»

في أثناء ذلك الحديث، كنا نمرُّ بسرعة تحت سلسلة الجسور الطويلة المبنية فوق نهر التيمز. كانت آخر أشعة للشمس في سبيلها إلى الاختفاء خلف الصليب الموجود على قمة كاتدرائية سانت بولس ونحن نمر بمدينة لندن، وكان الغسق قد حل عندما وصلنا إلى البرج.

قال هولمز وهو يشير إلى مجموعةٍ كبيرة من الصواري والحبال على جانبٍ سُوريٍّ من النهر: «هذه هي ترسانة جاكوبسون. لنُبحرْ بهدوء جيئةً وذهابًا مُستَتِرين خلف صفِّ مراكب الشحن تلك.» أخرج نظارةً ليلية من جيبه وتفرَّس الشاطئ مطوَّلًا ثم علَّق قائلًا: «أرى مُراقبي في مكانه لكنه لا يلوِّح بالمنديل.»

قال جونز بحماس: «ألا يمكن أن نُبحِر لمسافةٍ قصيرة باتجاه التيار ثم نتوقف بانتظارهم؟» فقد كنا جميعًا متحمِّسين حينها، حتى رجلا الشرطة والوقَّادان الذين لم يكن لديهم فكرةٌ واضحة عما يحدث.

أجاب هولمز: «لا ينبغي أن نأخذ أي شيء على أنه أمرٌ مُسلَّم به؛ فبالتأكيد من المرجَّح جدًّا أن يُبحِروا باتجاه مجرى التيار، لكننا لسنا متأكدين تمامًا من ذلك. فمن موقعنا هذا، يمكننا رؤية مدخل الترسانة، ويصعب عليهم هم رؤيتنا. ستكون السماء صافية الليلةً وسيكون هناك ضوءٌ كافٍ. يجب أن نبقى في مكاننا. أترون كيف يحتشد أولئك الأشخاص هنالك في ضوء مصابيح الغاز؟»

«إنهم يغادرون عملهم في ترسانة السفن.»

«يبدون صعاليك رثِّي المظهر، لكني أعتقد أن كلًّا منهم يحمل في داخله شرارةً أبديةً صغيرة. لن تستشفَّ ذلك أبدًا من مظهرهم؛ فلا يوجد ما يُستدل به على ذلك. الإنسان حقًّا لغزٌ غريب!»

علَّقت قائلًا: «يصفه البعض بأنه روح تسكن جسدًا حيوانيًّا.»

قال هولمز: «يتناول وينوود ريد ذلك الموضوع ببراعة؛ فهو يقول إن كل إنسان بذاته لغزٌ محيِّر، لكنه وسط الجماعة يُصبح حقيقةً رياضيةً مؤكدة. فعلى سبيل المثال، لا يمكنك أبدًا التنبؤ بتصرف شخصٍ واحد، لكن يُمكنك بدقة معرفة كيف سيتصرف متوسط عددٍ معين من الأشخاص؛ فالأفراد يختلفون فيما بينهم، لكن النِّسَب تظلُّ ثابتة. هكذا يقول ذلك الإحصائي، لكن هل أرى الآن منديلًا؟ بالتأكيد أرى شيئًا أبيض يرفرف هناك.»

صحت: «أجل، إنه الصبي التابع لك، أنا أراه بوضوح.»

هتف هولمز: «وها هو الزورق «أورورا» ينطلق بسرعةٍ كبيرة. انطلقْ بأقصى سرعة أيها المهندس خلف ذلك الزورق ذي الضوء الأصفر. يا إلهي، لن أسامح نفسي أبدًا إن لم نستطع اللحاق به!»

كان القارب قد انسلَّ دون أن يراه أحد من باب ترسانة السفن ومرَّ من وراء مركبَين أو ثلاثة صغار الحجم؛ فوصل إلى سرعةٍ عالية قبل أن نراه. والآن انطلق في اتجاه التيار بالقرب من شاطئ النهر بسرعةٍ هائلة. نظر جونز إليه بأسًى وهزَّ رأسه قائلًا: «إنه سريعٌ جدًّا، أشكُّ أننا سنستطيع اللحاق به.»

صاح هولمز وهو يكزُّ على أسنانه: «لا بد أن نلحق به! زيدوا كمية الفحم أيها الوقَّادون! اجعلوا الزورق ينطلق بأقصى طاقته. يجب أن نصل إليهم، حتى لو كان ذلك يعني احتراق الزورق!»

كنا نقترب من الزورق الآن، وارتفع هدير الأفران، وأصدرت المحركات القوية أزيزًا وصليلًا كأنها قلبٌ معدنيٌّ ضخم، وشقَّت مقدمة الزورق الحادة المائلة صفحة النهر

صانعة موجتَين هائلتَين عن يميننا ويسارنا. ومع كل خفقة تصدر من المحركات، كان الزورق يهتزُّ ويقفز بنا مثل كائنٍ حي. كان ثمة كشافٌ أصفرُ كبيرٌ في مقدمة السفينة يرسل شعاعًا من الضوء المتلألئ أمامنا. وأمامنا مباشرةً كان ثمة رقعةٌ داكنة على سطح الماء تظهر موضع الزورق «أورورا»، وكانت دوامات الزَّبد الأبيض التي يُخلِّفها وراءه تتحدث عن سرعته. أما نحن فقد مررنا كالبرق بجوار صنادلَ وبواخرَ ومراكبَ تجاريةٍ، من بينها أو من خلفها أو ندور حولها. تعالت من حولنا أصوات الهتاف الصادرة من الظلام، لكن الزورق «أورورا» تابع الانطلاق بسرعة، ونحن في إثره.

صاح هولمز وهو ينظر إلى الأسفل داخل غرفة المحرك، بينما يَلفح الوهج الشديد الصاعد منها وجهه التواق الذي يشبه في ملامحه النسر: «زيدوا الفحم يا رجال! زيدوا الفحم! لنحصل على أكبر قدرٍ ممكن من البخار.»

قال جونز وعينه على الزورق «أورورا»: «أعتقد أننا بدأنا نقترب قليلًا.»

قلت: «أنا متأكد من ذلك، وفي غضون بضع دقائق حتمًا سنكون قد أدركناه.»

لكن في تلك اللحظة، لسوء حظنا، قطع زورق يقطر ثلاثة صنادل الطريق بيننا وبينه. اضطررنا لأن ندير دفتنا بحدة باتجاه الريح كي نتفادى الاصطدام وعندما أدرناها مرةً أخرى لنكمل السير في طريقنا كان الزورق «أورورا» قد ابتعد مسافة مائتي ياردة، لكنه كان لا يزال في مجال رؤيتنا. وكانت السماء حينها تتحول من ضوء الغسق المعتم الذي تكون فيه الرؤية غير واضحة، إلى ظلام الليل الصافي الذي تُنيره النجوم. كانت مراجل زورقنا تعمل بأقصى طاقتها، والقشرة الهشَّة التي كنا نجلس فيها كانت تهتز وتُطقطق جراء الطاقة المفرطة التي كانت تدفعنا للأمام. مررنا بمنطقة ذا بول من نهر التيمز، وعبرنا بجوار رصيف ميناء ويست إنديا دوكس، ثم مرَرنا بمنطقة ديتفورد ريتش الطويلة من النهر، ثم اتجهنا لأعلى النهر مرةً أخرى بعد أن دُرنا حول رأس جزيرة الكلاب. والآن أصبحنا نرى بوضوح أمامنا الزورق «أورورا» الأنيق بعد أن كنا نراه مجرد كتلةٍ معتمة. وجه جونز كشاف زورقنا نحوه كي نتمكَّن من رؤية الأشخاص الموجودين على متنه بوضوح. كان ثمة رجل يجلس في مؤخرة الزورق منحنيًا فوق شيءٍ أسودَ بين ركبتَيه. وبجواره رأينا كتلةً داكنة تبدو ككلب من سلالة نيوفاوند لاند. كان الصبي يُمسك بذراع الدفة بينما رأيت سميث العجوز في وهج الفرن الأحمر يقف عاري الصدر يملأ الفرن بالفحم بكل ما أوتي من قوة. ربما لم يكونوا متأكدين في البداية من أننا نُطاردهم، لكن الآن ونحن نتبع كل تعرجاتهم والْتفافاتهم أصبح الأمر لا يحتمل

الشك. عندما وصلنا إلى جرينتش كان يفصلنا عنهم حوالي ثلاثمائة خطوة. وعند بلاكوال أصبحت المسافة بيننا لا تزيد على مائتين وخمسين خطوة. لقد طاردتُ كائناتٍ عديدةً في بلادٍ عديدة خلال حياتي المهنية الحافلة، لكن لم تمنحني الرياضة من قبلُ تلك الإثارة الجامحة التي شعرت بها في أثناء تلك المطاردة السريعة للمجرمين الهاربين في نهر التيمز. كنا نقترب منهم بثبات ياردة بياردة. وفي سكون الليل، كنا نستطيع سماع صوت هدير محركاتهم وصلصلتها. كان الرجل في مؤخرة الزورق لا يزال جاثيًا على الأرضية، ويحرك ذراعَيه كما لو كان مشغولًا بفعل شيءٍ ما، بينما كان بين الحين والآخر يرفع رأسه ليقيس ببصره المسافة التي تفصله عنا. ظللنا نقترب منهم أكثر فأكثر. صاح فيهم جونز يأمرهم بالتوقف. فقد أصبحنا خلفهم بمسافة لا تزيد عن أربعة قوارب، وكلا الزورقَين ينطلق بسرعةٍ جنونية. كنا قد أصبحنا في جزءٍ مكشوف من النهر، على أحد جانبينا كان سهل باركينج، وعلى الجانب الآخر مستنقعات بلامستيد الكئيبة المنظر. وعلى إثر صيحة جونز، هبَّ الرجل الجاثي على الأرضية في مؤخِّرة الزورق واقفًا، ولوَّح بقبضتَيه لنا، وهو يُطلق السباب بصوت عالٍ مبحوح. كان رجلًا ضخم الجسد وقويًّا، وعندما وقف مباعدًا بين ساقيه ليوازن نفسه، رأيت أنه من تحت فخذه الأيمن لم يكن هناك سوى طرفٍ خشبي. وعلى إثر صرخاته الحادة الغاضبة، تحركت الكتلة المكوَّمة على أرضية الزورق، اعتدلت لتصبح رجلًا أسود اللون صغير الحجم — أصغر رجل رأيته في حياتي — له رأسٌ مشوَّهٌ ضخم وكومة من الشعر الأشعث المتشابك. كان هولمز قد استلَّ مسدسه بالفعل، وأخرجت أنا أيضًا مسدسي عندما وقعت عيني على ذلك الكائن المتوحِّش المشوَّه. كان ملتحفًا بشيء يُشبه المعطف الواسع أو البطانية، لا يكشف إلا وجهه الذي كان كافيًا ليُفزع من يراه. لم أرَ قط ملامح تحمل تلك القسوة والوحشية البالغة. كانت عيناه الضيقتان تلمعان وتحترقان بوهجٍ سوداوي، وشفتاه الغليظتان تنحسران عن أسنانه التي كانت تكزُّ وتصطك وهو ينظر إلينا بغضبٍ شبه حيواني.

قال هولمز بهدوء: «أطلِقِ النار عليه إن رفع يده.» كنا حينها قد أصبحنا على بُعد قاربٍ واحد نكاد نلامس طريدتنا. كنت أستطيع الآن رؤية الرجلَين بعد أن وقفا، الرجل الأبيض يقف مباعدًا بين قدميه، يصرخ مطلقًا السباب، والقزم الشرير ذو الوجه الدميم، ينظر إلينا مصرًّا أسنانه الصفراء القوية في ضوء مصباحنا.

كان من الجيد أن نراه بذلك الوضوح الشديد. فبينما نحن ننظر إليه أخرج من تحت غطاء جسده أداة خشبية أسطوانية قصيرة، مثل المسطرة المدرسية، ووضعها بين شفتيه.

دوَّى صوت مسدسَينا في الوقت ذاته. دار حول نفسه، ورفع ذراعَيه، ثم سقط جانبًا في التيار وهو يُطلِق سعالًا مختنقًا، ولمحتُ عَينه الحاقدة المتوعِّدة بين الدوامات البيضاء في مياه النهر. وفي اللحظة ذاتها، ألقى ذو الساق الخشبية بنفسه على الدفة وأدارها بحدة بحيث اتجه زورقه ناحية الضفة الجنوبية، بينما كنا نُطلِق النيران على مؤخرة الزورق وأخطأناها ببضعة أقدام فقط. في غضون ثوانٍ كنا نسير في نفس الاتجاه، لكنه كان قد أوشك على الوصول إلى الضفة بالفعل. كان المكان موحِشًا ومنعزلًا، وكان ضوء القمر يسطع فوق مساحةٍ شاسعة من أراضي المستنقعات، تنتشر بها برك من المياه الراكدة ورقع من النباتات المتعفِّنة. بصوت ارتطامٍ مكتومٍ ضعيف، صعد الزورق على الضفة الطينية؛ فارتفعت مقدمته في الهواء وغمرت المياه مؤخرته. قفز المجرم الهارب منه، لكن سرعان ما غاص طرفه الخشبي بطوله في التربة المشبعة بالماء. قاوم وتلوى ألمًا لكن دون جدوى؛ فلم يكن باستطاعته التحرك خطوة واحدة للأمام أو الخلف. كان يصرخ بغضبٍ عاجز، ويركل الطمي بقدمه الأخرى باهتياج، لكن محاولاته للمقاومة لم تنجح إلا في جعل طرفه الخشبي يغور أكثر في طمي الضفة اللزج. وعندما رسا زورقنا بجانبه كان قد أصبح عاجزًا تمامًا عن الحركة لدرجة أننا اضطررنا إلى لفِّ حبلٍ حول كتفَيه كي نتمكَّن من سحبه من الطمي وجرِّه ناحيتنا مثل سمكةٍ شريرة. جلس كلٌّ من سميث الأب والابن متجهمَين داخل زورقهما، لكنهما صعدا على متن زورقنا دون اعتراض عندما أُمِرا بذلك. سحبنا أيضًا الزورق «أورورا» وربطناه بإحكام بمؤخرة زورقنا. وعلى سطحه، وجدنا صندوقًا حديديًّا هنديَّ الصنع. كان هذا بلا أدنى شك هو الصندوق الذي يحوي كنز آل شولتو الملعون. لم يكن له مفتاح، لكنه كان ثقيل الوزن؛ لذا نقلناه بحرص إلى مقصورة زورقنا الصغيرة. وبينما أبحرنا ببطء عائدين أدراجنا عكس اتجاه التيار، وجَّهنا ضوء كشافنا في جميع الاتجاهات، لكن لم نجد أي أثر لرجل الجزيرة الشرس. ففي مكانٍ ما في قاع نهر التيمز المظلم، ترقد عظام ذلك الزائر الغريب للبلاد في الطين.

قال هولمز وهو يشير إلى الكوَّة الخشبية في سطح زورقنا: «انظر إلى هذا، بالكاد أطلقنا مسدسَينا بسرعةٍ كافية.» وخلف الموضع الذي كنا نقف به بالضبط، استقر أحد تلك السهام القاتلة التي نعرفها جيدًا. لا بد أنه مرق بيننا في اللحظة التي أطلقنا فيها النار. نظر إليه هولمز مبتسمًا وهزَّ كتفَيه بلا مبالاة، لكني أعترف بأني قد أصابني الغثيان لمجرد تخيُّل تلك الميتة الشنيعة التي نجونا منها بأعجوبة هذه الليلة.

الفصل الحادي عشر

كنز أجرا العظيم

جلس أسيرنا في المقصورة قبالة الصندوق الحديدي، الذي فعل الكثير وانتظر طويلًا كي يحصل عليه. كان رجلًا أسفع، له نظرة لا مبالية، وتُغطي الخطوط والتجاعيد المتشابكة ملامح وجهه البني المائل إلى الحمرة؛ مما يُعبِّر عن حياةٍ قاسية قضاها في العراء. كانت للحيته هيبةٌ غريبة تدلُّ على أنه ليس رجلًا يسهل إثناؤه عن غايته. قد يكون في الخمسين من عمره تقريبًا؛ فشعره المجعَّد الأسود كان قد اشتعل فيه الشيب، وجهه وهو ساكن لم يكن قبيحًا، مع أن حاجبَيه الكثَّين وذقنه العريض تجعل ملامح وجهه مُفزِعة عندما يرتسم عليها الغضب، كما رأيتُ مؤخرًا. كان يجلس الآن واضعًا يديه المكبلتَين على حجره، خافضًا رأسه على صدره ينظر بعينَيه الثاقبتَين اللامعتَين إلى الصندوق الذي كان الدافع وراء أفعاله الشريرة. بدا لي أن ما ارتسم على ملامحه القاسية المتماسكة هو الأسى أكثر من الغضب. رفع عينَيه ونظر إليَّ مرة وفي عينَيه لمعة فيها ما يُشبه الفكاهة.

قال هولمز وهو يُشعل سيجارًا: «يؤسفني أن الأمور آلت إلى هذا يا جوناثان سمول.»

أجاب بصدق: «وأنا كذلك يا سيدي، لا أعتقد أن بإمكاني الإفلات مما فعلت. ولكنني أقسم لك أني لم أمسَّ السيد شولتو. ذلك العفريت تونجا هو من أطلق عليه أحد سهامه الملعونة تلك. لم يكن لي يد في ذلك يا سيدي. لقد حزنت عليه كما لو كان أحد أقربائي. حتى إني جلدتُ ذلك الشيطان الصغير بطرف الحبل غير المربوط، لكن كان الأمر قد وقع بالفعل، ولم يكن بالإمكان إبطاله.»

قال له هولمز: «خذ سيجارًا، ومن الأفضل كذلك أن تشرب بعض النبيذ من قنينتي؛ فأنت مبتلٌّ للغاية. كيف كنت تتوقع أن يتغلَّب رجلٌ صغير الحجم وضعيف مثل ذلك الأسود على السيد شولتو ويُقيِّده بينما أنت تتسلق الحبل؟»

«يبدو أنك تعرف الكثير عن الأمر كما لو كنت معنا يا سيدي. في الواقع، كنت آمل ألا أجد أحدًا في الغرفة؛ فقد كنت أعرف عادات سكان المنزل جيدًا، وفي ذلك الوقت، ينزل السيد شولتو للطابق السفلي عادة ليتناول عشاءه. لن أُخفي عنكم أي شيء بخصوص ذلك الأمر؛ فأفضل دفاع لي هو أن أخبر بالحقيقة الكاملة. حسنًا! لو كنتُ قد وجدت ذلك الرائد العجوز، لكنت ضربتُ عنقه دون ندم. لم أكن لأتردَّد في قتله طعنًا، تمامًا مثلما لا أتردد في تدخين هذا السيجار. لكن حظِّي الملعون أوقعني في ابنه الذي لا أكنُّ له أيَّ ضغينة.»

«أنت الآن في عهدة السيد أثيلني جونز من شرطة سكوتلانديارد. سوف يُحضرك إلى شقتي لأطلب منك أن تخبرني بحقيقة الأمر كله. عليك أن تُزيح ذلك الأمر عن عاتقك، لأنك إن فعلت فقد أستطيع مساعدتك؛ فأعتقد أن بإمكاني إثبات أن تأثير السم كان سريعًا جدًّا لدرجة أن الرجل كان قد توفِّي بالفعل قبل أن تصل إلى الغرفة.»

«وهذا ما حدث يا سيدي. لم يخِفْني شيء في حياتي بقدر رؤيته كاشرًا عن أسنانه في وجهي، ورأسه مائل على كتفه وأنا أدخل عبر النافذة. لقد أرعبني ذلك يا سيدي. كدت أقتل تونجا على فعلته تلك لولا أنه فرَّ هاربًا؛ ولهذا ترك هراوته، وكذلك بعض سهامه كما أخبرني؛ مما ساعدكم — حسبما أعتقد — على اقتفاء أثرنا مع أني لا أستطيع تخمين كيف لم تُضيِّعوا أثرنا. لا أكنُّ لكم أي ضغينة بسبب ذلك.» ثم أردف قائلًا بابتسامةٍ مريرة: «مع أني أستغرب أن أقضي — أنا صاحب الحق في نصف مليون من الأموال — النصف الأول من سنوات عمري في بناء حاجز أمواج في جزر أندمان، وأقضي على الأرجح النصف الآخر منها أحفر مصارف للمياه في دارتمور. كان يومًا مشئومًا يوم وقعتْ عيناي على ذلك التاجر أشميت وأصبح لي علاقة بكنز أجرا الذي لم يجلب على أيٍّ من مالكيه غير اللعنات؛ فقد تسبب في مقتل التاجر، وجلب على الرائد شولتو الرعب والشعور بالذنب، وجلب عليَّ العبودية المؤبدة.»

في تلك اللحظة، أقحم أثيلني جونز وجهه الضخم وكتفَيه العريضَين داخل المقصورة الضيقة، وقال مُعلِّقًا: «يا لها من جلسةٍ عائليةٍ ممتعة، أعتقد أني أحتاج لبعض النبيذ من قنينتك يا هولمز. حسنًا، أعتقد أنه بإمكاننا الآن أن نتبادل التهاني. خسارة أننا لم نقبض على الرجل الآخر حيًّا، لكن لم يكن أمامنا خيارٌ آخر. برأيي يا هولمز أنك يجب أن تعترف بأن هروب الزورق كان وشيكًا. لقد بذلنا أقصى ما بوسعنا كي ندركه.»

قال هولمز: «العبرة بالنهايات، لكني لم أكن أتصور أن يكون «أورورا» سريعًا لهذا الحد.»

«يقول سميث إنه أحد أسرع الزوارق الموجودة في النهر، وإنه إن كان معه رجلٌ آخر ليساعده في تشغيل المحركات لما أدركناه أبدًا، لكنه يقسم بأنه لا يعلم أي شيء عن قضية نورwood تلك.»

صاح سجيننا: «هذا صحيح، لم يكن يعرف عنها أي شيء. لقد اخترت زورقه لأني سمعت أنه سريع جدًّا. لم نخبره أي شيء، لكننا دفعنا له مقابلًا جيدًا، ووعدناه أن يحصل على مكافأةٍ مجزية إن وصلنا إلى سفينتنا المقصودة «إزميرالدا» في جريفسند، المتجهة إلى البرازيل.»

«حسنًا، إن لم يكن قد ارتكب أي خطأ، فسنضمن ألَّا يلحقه أي أذًى. فقد نكون سريعين في إلقاء القبض على المشتبهين، لكننا لا نتسرع في إدانتهم.» كان من المسلي ملاحظة كيف أن جونز المعتدَّ بنفسه قد بدأ بالفعل في نسب الفضل في نجاح عملية الاعتقال تلك لنفسه. استنتجتُ من الابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على وجه هولمز أنه لم يفُته ملاحظة ذلك.

قال جونز: «سنصل إلى جسر فوكسهول قريبًا، وسنُنزلك يا دكتور واطسون أنت وصندوق الكنز هناك. لا أحتاج لأن أُذكِّرك بأني أتحمَّل على عاتقي مسئوليةً كبيرة بالسماح لك بالقيام بذلك؛ فهو أمر غير مُعتاد على الإطلاق، لكني لا أخلف اتفاقي. لكن من واجبي أن أرسل معك مفتِّشًا، لأن معك حمولةً ثمينة جدًّا. بالتأكيد ستستقلُّ عربة أجرة، أليس كذلك؟»

«أجل، سأستقلُّ عربة.»

«خسارة أنه لا يوجد مفتاح للصندوق، كنا نجرد محتوياته أولًا. سيكون عليك كسر قفله. أين المفتاح أيها الرجل؟»

قال سمول باقتضاب: «في قاع النهر.»

«حسنًا! لم يكن هناك داعٍ لأن تتسبَّب لنا في ذلك العناء دون جدوى، لقد لاقينا ما يكفي من المشقة بسببك بالفعل، ومع ذلك، أنا لا أحتاج إلى أن أنبِّهك بأن تأخذ حذرك يا دكتور. أحضر الصندوق معك إلى شقتكما بشارع بيكر؛ ستجدنا هناك قبل أن نتابع طريقنا إلى المخفر.»

أنزلوني في فوكسهول ومعي الصندوق المعدني الثقيل ومفتش لطيف وبشوش لمرافقتي. بعد أن سارت العربة لربع ساعة، وصلنا إلى منزل السيدة سيسِل فورستر. فوجئت الخادمة بقدوم زائر في ذلك الوقت المتأخر. شرحتْ لي أن السيدة سيسِل فورستر

خرجت ذلك المساء، وفي الأغلب ستتأخر في العودة جدًّا. لكن الآنسة مورستان كانت في غرفة الاستقبال؛ لذا ذهبت إلى غرفة الاستقبال حاملًا الصندوق، وتركت المفتش اللطيف في عربة الأجرة.

كانت تجلس أمام النافذة، مرتدية رداءً أبيضَ شفافًا، تُزيِّن ياقته وخصره مسحةٌ خفيفة من اللون القرمزي. جلست مُرخية ظهرها في الكرسي المصنوع من الخوص يُداعب ظلُّ المصباح الساقط عليها قسمات وجهها العذب الحزين، ويصبغ خصلات شعرها الغزير بلمعةٍ معدنيةٍ خفيفة. تدلَّت إحدى ذراعيها البيضاء اللون على أحد جانبَي الكرسي، وكانت جلستها تدلُّ على الاستغراق في حزنٍ عميق. هبَّت واقفةً عندما سمعت صوت خطواتي، وشابَ وجنتَيها الشاحبتَين احمرارٌ شديد من المفاجأة والسعادة.

قالت: «سمعتُ عربة تقترب، وظننتُ أن السيدة فورستر قد عادت مبكرًا، لكنني لم أتصور قط أن يكون هذا أنت. أيَّ خبر تحمل لي؟»

قلت وأنا أضع الصندوق على الطاولة وأتحدَّث بسعادة وصخب على الرغم من الحزن الذي وقر في قلبي: «لقد جئتُك بما هو أفضل من الأخبار، أحمل لك ما هو أفضل من أخبار العالم كلها؛ أحمل لك كنزًا.»

نظرتْ إلى الصندوق الحديدي، وسألت ببرود: «أهذا هو صندوق الكنز إذن؟»

«أجل، هذا هو كنز أجرا العظيم؛ نصفه ملكك والنصف الآخر ملك ثاديوس شولتو. سيكون نصيب كل منكما بضع مئات من الآلاف. أتتصوَّرين ذلك! سيكون عائده السنوي عشرة آلاف جنيه. ستكونين من أغنى الشابات في إنجلترا، أليس ذلك رائعًا؟»

أعتقد أني ربما بالغتُ في اصطناع سعادتي، وأنها ربما لاحظت النبرة الجوفاء لتهانيِّ، لأني رأيت حاجبيها يرتفعان قليلًا وهي تنظر لي باستغراب.

قالت: «الفضل يعود لك في حصولي عليه.»

أجبت: «لا، لا، ليس لي بل لصديقي شيرلوك هولمز. فمهما بلغت قوة تفكيري، لم أكن لأتمكَّن من تتبُّع دليلٍ أرْبَكَ حتى قدراته هو التحليلية العبقرية. ومع ذلك، كدنا أن نفقده بالفعل في آخر لحظة.»

قالت: «رجاءً، تفضَّل بالجلوس واحكِ لي كل شيء يا دكتور واطسون.»

سردتُ باختصارٍ ما حدث منذ آخر مرة رأيتها، ويشمل ذلك الأسلوب الجديد الذي اتَّبعه هولمز في البحث عن الزورق «أورورا» والعثور عليه، وظهور أثيلني جونز، ورحلتنا الاستطلاعية الليلية، والمطاردة الشرسة في نهر التيمز. كانت تستمع إلى سردي لمغامراتنا

فاغرة فاها، وعيناها تلمعان. وعندما تحدثت عن السهم الذي كاد يصيبنا، شحب وجهُها لدرجة أني خشيتُ أن تفقد وعيها.

قالت وأنا أُسرع لأصبَّ لها بعض الماء: «لا تقلق، أنا بخير الآن. لقد صُدمت لمعرفة أنني عرَّضت أصدقائي لذلك الخطر المريع.»

أجبت: «لقد انتهى كل ذلك الآن؛ فنحن لم نُصَب بسوء. لن أسرد عليك أيَّ تفاصيلَ كئيبةٍ أخرى. لنُدرْ دفة الحديث تجاه شيءٍ مُبهِج أكثر؛ ها هو الكنز. ما الذي يمكن أن يثير البهجة أكثر من ذلك؟ أخذت إذنًا بأن أحضره معي، لأني فكَّرت أنك قد ترغبين في أن تكوني أول من يراه.»

قالت: «كنت أرغب كثيرًا في ذلك.» لكن صوتها كان خاليًا من أي حماس. فدون شك كانت تظن أنه قد يكون من غير اللائق من جانبها أن تبدو غير مبالية بتلك الجائزة التي كلفنا الحصول عليها كل هذا العناء.

قالت وهي تنحني فوق الصندوق: «يا له من صندوق جميل! هذه زخارفُ يدويةٌ هندية، أليس كذلك؟»

«بلى؛ فهو صناعةٌ معدنية من ولاية بيناريس.»

صاحت مندهشة وهي تحاول رفعه: «وثقيل جدًّا أيضًا! قد تكون قيمة الصندوق نفسه كبيرة. أين المفتاح؟»

أجبتُ: «لقد ألقاه سمول في نهر التيمز. سأُضطر لاستعارة قضيب إذكاء النار الخاص بالسيدة فورستر.» كان في الجزء الأمامي من الصندوق مشبك قفل سميك وعريض مصنوع على هيئة تمثال بوذا جالسًا. أقحمت طرف القضيب تحته ولَويْتُه باتجاه الخارج مثل العتلة. انفتح القفل مُحدِثًا طقطقةً عالية. وبأصابعَ مرتعشةٍ فتحتُ الغطاء، ثم وقفنا نُحملِق به بدهشة. فقد كان الصندوق فارغًا!

لا عجب أنه كان ثقيلًا؛ فقد كان سُمك الحديد المصنوع منه ثلثَي بوصة في كل جوانبه. كان واسعًا، ومُتقن الصنع، ومتينًا، كأنه صُنِع ليَحمل في داخله أشياءَ غالية الثمن، لكن لم يكن بداخله حتى قطعةٌ واحدة من المعدن أو المجوهرات. لقد كان خاليًا تمامًا.

قالت الآنسة مورستان بهدوء: «لقد اختفى الكنز!»

عندما سمعت تلك الكلمات واستوعبتُ معناها، شعرت وكأن همًّا كبيرًا قد زال عن قلبي. لم أدرك كم أثقلني كنز أجرا ذلك إلا حين اختفى أخيرًا. كان ذلك شعورًا أنانيًّا ينمُّ

عن عدم الولاء، ولم يكن صحيحًا. لكنني لم أفكر إلا في أن ذلك الحاجز الذهبي قد زال من بيننا؛ هتفتُ بسعادة من أعماق قلبي: «حمدًا لله!»

نظرت لي بابتسامةٍ خاطفةٍ متسائلةً، وسألتني: «لم قلت ذلك؟»

قلت وأنا أمسك بيدها فلم تسحبْها: «لأنه أصبح بإمكاني أن أطالك مرةً أخرى؛ لأنني أحبك يا ماري، أحبك كأصدق ما أحب رجل امرأة؛ لأن هذا الكنز، وهذه الثروة، ألجمتْني. والآن بعد أن ضاعت، أصبح بإمكاني أن أخبرك كم أحبك! ولهذا حمدت الله.»

همست وأنا أضمُّها إليَّ: «إذن، فإنني أحمد الله أنا أيضًا.» وأيًّا كان من فَقَد كنزه، فقد علمت في تلك الليلة أني وجدتُ كنزي.

الفصل الثاني عشر

قصة جوناثان سمول الغريبة

كان المفتش الذي تركته بعربة الأجرة رجلًا صبورًا للغاية، فقد مر وقتٌ طويل حتى عدت إليه. أظلم وجهه عندما أريته الصندوق الفارغ.

قال بكآبة: «ها قد ضاعت المكافأة! فإن لم تكن توجد أموال فلن أحصل على أجري. كنا سنحصل على عشرة جنيهات لكلٍّ منا أنا وسام براون إن كان الكنز بداخل الصندوق.»

قلت: «السيد ثاديوس شولتو رجلٌ غني، أعتقد أنه سيكافئك على مجهودك سواء كان الكنز موجودًا أو لا.»

لكن هزَّ المفتش رأسه بخيبة أمل وكرر: «سيعتقد السيد أثيلني جونز أني لم أقم بعملي على أكمل وجه.»

صدق تنبؤه بالفعل؛ فقد بدا وجه المحقِّق خاليًا من التعبير عندما وصلت إلى شارع بيكر وأريته الصندوق الفارغ. كانوا قد وصلوا للتوِّ هو وهولمز والسجين، لأنهم غيروا خطتهم بحيث يتمكنون من المرور بمركز شرطة للإبلاغ عن التطورات في طريقهم إلى هنا. جلس رفيقي مسترخيًا في مقعده ذي الذراعين، وعلى وجهه ذلك الفتور المعتاد، بينما جلس سمول قبالته في تبلُّد وهو يضع ساقه الخشبية فوق السليمة. وعندما أريتُهم الصندوق الفارغ استرخى في مقعده وضحك بصوت عالٍ.

قال أثيلني جونز بغضب: «أنت الذي فعلت هذا يا سمول.»

صاح باغتباط: «أجل، لقد خبَّأته حيث لن تطولوه أبدًا؛ إنه كنزي أنا، وإن لم يكن بإمكاني الحصول على غنيمتي فسأضمن ألا يحصل عليها غيري. أنا أؤكد لكم أنه ليس لأحد حق فيه غيري أنا وثلاثة رجال محبوسين في زنازين المساجين في جزر أندمان. أنا أعلم الآن أنه ليس بإمكاني الحصول عليه، وكذلك هم؛ فقد كنت أتصرف طوال الوقت لصالحهم هم أيضًا، تمامًا مثلما كنت أتصرف لصالحي؛ فطالما لازمتْنا علامة الأربعة.

وأعلم أنهم كانوا سيرغبون في أن أفعل ما فعلته بالضبط، وألقي الكنز في نهر التيمز بدلًا من أن يحصل عليه ورثة شولتو أو مورستان. فلم نفعل ما فعلناه بأشميت كي يَصيروا هم أغنياء. ستجدون الكنز حيث يرقد المفتاح وجسد تونجا الضئيل. فعندما رأيت أن زورقكم سيدركنا حتمًا، خبأت الغنيمة في مكانٍ آمن. لن تخرجوا بأي مكاسب من هذه الرحلة.»

قال جونز بصرامة: «أنت تخدعنا يا سمول. فإن كنت أردت إلقاء الكنز في التيمز حقًّا، لكان من الأسهل عليك إلقاء الصندوق بأكمله.»

أجاب وهو يرمقه بنظرةٍ جانبيةٍ خبيثة: «لكان أسهل عليَّ أن ألقيه، وأسهل عليكم أن تستعيدوه. فالرجل الذي يملك الذكاء الكافي لتعقُّبي يملك الذكاء الكافي لإخراج صندوقٍ حديدي من قاع النهر. لكن بعد أن بعثرته على مسافة حوالي خمسة أميال، فقد يُصعِّب ذلك مهمته أكثر. ومع أنه آلمني بشدة أن أفعل ذلك، فقد جُنَّ جنوني عندما أدركتمونا. لكني لا أحزن على ذلك؛ فقد عشت الحياة بحلوها ومرِّها، لكني تعلمت ألا أبكي على اللبن المسكوب.»

قال المحقق: «هذا أمرٌ جسيم جدًّا يا سمول. فإن كنت أعنت العدالة على أن تأخذ مجراها بدلًا من عرقلتها بتلك الطريقة، لأصبحت فرصك أفضل أثناء المحاكمة.»

صاح المحكوم السابق بغضب: «العدالة! أي عدالة؟ من صاحب الحق في هذه الغنيمة إن لم نكن نحن؟ أين العدالة في إعطائها لمن لم يستحقَّها يومًا؟ أتعرف كيف استحققتُها أنا! لقد قضيت عشرين عامًا طويلة في ذلك المستنقع الموبوء، أعمل طوال ساعات النهار تحت شجرة القُرم، وأقضي ساعات الليل مقيدًا داخل أكواخ المساجين القذرة، أعاني لدغات الناموس ونوبات الحمَّى، وأتحمَّل تنمُّر رجال الشرطة السود الملاعين الذين يُحبون صبَّ جام غضبِهم على رجلٍ أبيض. هكذا استحققت كنز أجرا. وأنت تُحدثني عن العدالة لأني لم أتحمل أن أشعر بأني دفعت ذلك الثمن كي يتمتَّع غيري بالكنز؟ لأن أُشنق عشرين مرة أو يَغرِس أحد سهام تونجا في جلدي خير لي من أن أقضي حياتي في زنزانة سجن وأنا أعرف أن رجلًا آخر يعيش مرتاحًا في قصر بأموالي.» خلع سمول قناع الهدوء، وخرج منه ذلك الكلام في زوبعة انفعال، وعيناه تشتعلان غضبًا، وأصفاده تصطكُّ من حركة يدَيه المنفعلة. وعندما رأيته في ذروة غضبه وانفعاله، أدركتُ أن الرعب الذي تملَّك الرائد شولتو عندما علم بأن ذلك السجين الجريح يسعى وراءه كان طبيعيًّا ومبررًا.

قال هولمز بهدوء: «لا تنسَ أننا لا نعلم أي شيء عن ذلك كله؛ فنحن لم نسمع قصتك بعدُ، ولا نعلم إلى أي مدًى كانت العدالة في صفك.»

قال سمول: «حسنًا يا سيدي، أنت لم تعاملني إلا بكل احترام حتى الآن، مع أنك مَن تسبَّب في وضع تلك الأصفاد حول يديَّ. ومع ذلك، أنا لا أحمل لك أي ضغينة لقيامك بذلك؛ فالأمر كله عادل وقانوني. فإن كنت تريد سماع قصتي فلن أُخفيَها عنك. كل كلمة مما سأحكيه لك هي الحقيقة المطلَقة. شكرًا لك، بإمكانك أن تضع الكأس هنا بجواري كي أرتشف منه كلما جفَّ حلقي.

أنا رجل من ورسترشاير، ولدت بالقرب من بيرشور. وأعتقد أنك ستجد العديد من أفراد عائلة سمول يعيشون هناك الآن إن بحثْت. كثيرًا ما فكرت في أن أذهب لأبحث عنهم هناك، لكني في الحقيقة لم أكن أبدًا محلَّ فخر للعائلة، وأشك في أنهم كانوا سيَسعدون لرؤيتي. فقد كانوا جميعهم أشخاصًا مستقرِّين ومتديِّنين من صغار المزارعين، معروفين في الريف بحُسن السمعة، بينما كنت أنا مشاغبًا نوعًا ما. لكن على الأقل عندما كنت في الثامنة عشرة تقريبًا، أعفيتُهم من مشاكلي؛ فقد تورطتُ في مشكلة بسبب فتاة، ولم يكن بإمكاني الفكاك منها إلا بالتطوع في صفوف الجيش، والانضمام إلى كتيبة كنت الشرقية الملكية، والتي كانت حينها على وشك الانطلاق إلى الهند.

لكن لم يكن مقدَّرًا لي أن أواصل العمل في الجيش؛ فلم أكد أتعلم المشية العسكرية وكيفية استخدام بندقيتي، عندما هدَتني حماقتي لأن أذهب للسباحة في نهر الجانج. لحسن حظي، كان جون هولدر، رقيب فرقتي في النهر في ذلك الوقت، وهو أحد أمهر السباحين في الخدمة. هاجمني تمساح وأنا في منتصف الطريق للضفة الأخرى، وقضم رجلي اليُمنى وقطعها تمامًا من فوق الركبة مباشرة كما لو كان جراحٌ هو مَن قطعها؛ فقدتُ وعيي بفعل الصدمة والنزيف، وكنت سأموت غرقًا لولا أن أمسك بي هولدر وسبح بي إلى الشاطئ. قضيت خمسة شهور في المشفى بسبب ذلك، وعندما أصبحت قادرًا على مغادرته سائرًا على قدمي بصعوبة بمساعدة ذلك الطرف الخشبي المربوط بجذعتي، وجدتني قد سُرِّحْت من الجيش وصرت غير لائق لأي مهنة تتطلَّب جهدًا بدنيًّا.

كان الحظ قد أدار ظهره لي في ذلك الوقت كما تتخيَّلون؛ فقد صرت كسيحًا عاطلًا وأنا لم أبلغ بعدُ العشرين من عمري. لكن ما لبث أن اتضح لي أن سوء حظي كان منحة في صورة محنة؛ فقد احتاج رجل يسمى أبلوايت — قدِم إلى البلاد لإقامة مزرعة لنبات النيلة — إلى مُشرف لملاحظة العمال وحثِّهم على العمل. صادف أنه كان صديقًا للكولونيل

الذي كان يوليني اهتمامًا منذ الحادث. كي لا أطيل عليكم، رشحني الكولونيل بشدة لذلك المنصب، ولأن أغلب العمل كان من المفترض أن يُقضى من على ظهر الحصان، فلم تُمثِّل ساقي عقبةً كبيرة؛ لأن الجزء المتبقي من ساقي كان يكفي لأن أتشبث جيدًا بالسرج. كان كل ما عليَّ فعله هو أن أتجول بحصاني في المزرعة، لأراقب الرجال أثناء عملهم، وأُبلغ عن المتكاسلين. كان الأجر مُجزيًا، وكان محل إقامتي مريحًا، وكنت في المجمل قانعًا بقضاء ما تبقى من أيامي في مزرعة نبات النيلة. كان السيد أبلوايت رجلًا طيبًا، وكان كثيرًا ما يمر على كوخي الصغير كي يشاركني تدخين الغليون؛ فالرجال البيض هناك في الغربة يشعر الواحد منهم بالألفة تجاه الآخر أكثر مما يفعلون هنا في وطنهم.

لكن الحظ لم يلازمني طويلًا؛ ففجأة، ودون سابق إنذار، اندلع تمردٌ عظيم ضدَّنا. فقبلها بشهر، كانت الهند تبدو للعيان هادئة ومسالمة، كما لو كانت سوري أو كنت، ثم فجأة انطلق مائتا ألف من الشياطين السود يَعيثون في الأرض فسادًا، وتحولت البلد كلها إلى جحيم. بالطبع أنتم تعرفون عن ذلك الأمر أيها السادة أكثر مما أعرف بكثير على الأغلب؛ فالقراءة ليست من اهتماماتي؛ فأنا لا أعرف إلا ما شاهدته بعيني. كانت مزرعتنا في مكان يُدعى ماثورا، بالقرب من حدود المقاطعات الشمالية الغربية للهند. وكل ليلة كانت السماء بأكملها تضيء بالنيران المشتعلة في البيوت الريفية، وكل يوم كانت تمرُّ بأرضنا جماعاتٌ صغيرة من الأوروبيين بزوجاتهم وأطفالهم في طريقهم إلى أجرا، حيث كانت تتمركز أقرب قواتٍ عسكرية. كان السيد أبلوايت رجلًا عنيدًا؛ فقد كان يتصور أن الناس يعطون الأمر أكبر من حجمه، وأنه سيهدأ فجأة كما بدأ. كان يجلس في شرفته يَحتسي الويسكي الممزوج بالصودا ويُدخِّن سجائر الشيروت، بينما كان البلد يحترق من حوله. بالطبع اخترنا البقاء معه، أنا وداوسن، الذي كان يساعده هو وزوجته في أعمال الحسابات والإدارة. وفي أحد الأيام، حدثت الواقعة. كنت حينها في مزرعةٍ بعيدة، وكنت عائدًا على مهل إلى المنزل في المساء ممتطيًا جوادي، عندما وقعت عيناي على كومةٍ سوداءَ في أسفل مجرًى مائيٍّ صغيرٍ منحدر. اقتربت على جوادي لأتبيَّنها، وصُعقت عندما وجدت أنها جثة زوجة داوسن، وقد قُطِّعَت إلى أشلاء وأكل نصفَها الكلابُ المحلية وبنات آوى. وعلى مسافة غير بعيدة منها، كان داوسن نفسه مستلقيًا على وجهه وقد فارق الحياة وفي يده مسدسٌ فارغ، وأمامه جثث أربعة مجندين هنود. شددتُ عنان جوادي، وأنا في حيرة! إلى أين أذهب؟ لكن في تلك اللحظة، رأيت دخانًا كثيفًا يتصاعد من بيت السيد أبلوايت الريفي، وألسنة النيران قد بدأت تتصاعد عبر سطحه. حينها أدركت أني إن حاولت

التدخل، فلن أستطيع مساعدة رب عملي، بل سألقي بنفسي إلى التهلكة؛ فمن مكاني كنت أرى مئات الرجال السود المتوحِّشين، بمعاطفهم الحمراء لا تزال على ظهورهم، يرقصون ويعْوُون حول المنزل المشتعل. أشار بعضهم إليَّ، وسمعت أزيز رصاصات تطاير بجانب رأسي؛ لذلك انطلقتُ هاربًا عبر حقول الأرز حتى وجدت نفسي بحلول الليل داخل أسوار أجرا الآمنة.

لكن اتَّضح لي أنه حتى أجرا لم تكن آمنة تمامًا؛ فقد كانت البلدة بأكملها تئزُّ مثل خلية نحل. أينما استطاع الإنجليز التجمع في مجموعاتٍ صغيرة، كانوا يسيطرون فقط على المواقع التي يستطيعون حمايتها بالسلاح؛ وخارج تلك المناطق، كانوا مجرد هاربين لا حول لهم ولا قوة. كانت معركة يخوضها الملايين ضد المئات؛ وأصعب شيء فيها هو أن أولئك الرجال الذين كنا نُقاتلهم، من جنود المشاة والخيالة والمدفعية، كانوا المجندين الذين انتقيناهم وعلَّمناهم ودرَّبناهم، يقاتلوننا بأسلحتنا وينفخون في أبواقنا. في أجرا، اجتمعتْ كتيبة المشاة البنغالية الثالثة، وبعض السيخ، وفرقتا خيالة، وكتيبة مدفعية. وتكوَّنت هيئةٌ تطوعية من الكتبة والتجار، وقد انضممت إليها على الرغم من ساقي الخشبية. خرجنا للقاء المتمرِّدين في شاهجونج في مطلع شهر يوليو، وأجبرناهم على التراجع لبعض الوقت، لكن نفدت ذخيرتنا واضطررنا إلى التراجع إلى داخل أسوار المدينة. كانت الأخبار السيئة تنهال علينا من كل حدب وصوب، وهو ليس بالأمر المُستَغرَب، فإذا نظرت إلى الخريطة ستجد أننا كنا في قلب المعركة؛ فلكناو تبعد أكثر من مائة ميل جهة الشرق، وكاونبور تبعد نفس المسافة تقريبًا جهة الجنوب. كان التعذيب والقتل والاعتداءات تحيط بنا من جميع الجهات.

وأجرا مدينة كبيرة تعجُّ بجميع أنواع المتطرفين وعبدة الشيطان المتوحِّشين. ورجالنا المعدودون كانوا يتوهون في أزقَّتها الضيقة المتعرجة؛ ولهذا جاوز قائدنا بنا النهر، واتخذ من الحصن القديم بمدينة أجرا مقرًّا لنا. لا أعلم إن كان أيٌّ منكم أيها السادة قد قرأ أو سمع أي شيء عن ذلك الحصن القديم في المدينة. إنه مكانٌ غريب للغاية — أغرب مكان دخلته، وقد زرت في حياتي أماكنَ شديدة الغرابة. بادئ ذي بدء، كانت مساحته ضخمةً جدًّا. أعتقد أن الأراضي داخل أسواره امتدت لأفدنةٍ شاسعة. كان ثمة جزء منه حديث البناء، وهو الذي استوعب حاميتنا؛ فوضعنا فيه نساءنا وأطفالنا ومؤننا وكل شيءٍ آخر، ومع ذلك ظلت هناك مساحةٌ كبيرةٌ شاغرة. لكن حجم ذلك الجزء الحديث لا يقارن بحجم المبنى القديم، الذي لا يطؤه أحد، وتسكنه العقارب. كان مليئًا بالردهات المهجورة،

والأروقة المتعرِّجة، والممرات الطويلة الملتوية؛ لذا يسهل أن يتوه المرء فيه. ولهذا السبب، نادرًا ما كان يدخله أحد، على الرغم من ذهاب مجموعة من الأفراد بين الحين والآخر لاستكشافه حاملين المشاعل.

كان النهر يجري بمحاذاة أسوار واجهة الحصن القديم وبالتالي كان يحمي تلك الجهة، لكن كانت توجد العديد من الأبواب على الجوانب والخلفية، وبالطبع كان من الضروري حراستها، في المبنى القديم وكذلك في المبنى الحديث الذي تتمركز فيه قواتنا. كان ينقصنا الرجال وبالكاد كان عددهم كافيًا لحراسة جميع زوايا المبنى وتشغيل الأسلحة؛ لذا كان من المستحيل وضع حارسٍ قوي على كل بوابة من البوابات العديدة. ما فعلناه هو أن أقمنا مركز حراسة في وسط الحصن، ووضعنا على كل بوابة رجلًا أبيضَ ورجلَين أو ثلاثة من السكان المحليين للحراسة. وقع الاختيار عليَّ لأتولى حراسة بابٍ منعزل على الجانب الجنوبي الغربي للمبنى في أثناء بضع ساعات من الليل. ووُضِع تحت قيادتي جنديان من السيخ من فرقة الفرسان، وتلقيتُ تعليمات بأن أطلق النار من بندقيتي حال حدثت مشكلة وسيأتيني الدعم فورًا من مركز الحراسة. لكن المركز كان يبعد عن تلك البوابة نحو مائتي خطوة، ولأن المسافة بيننا كانت تقطعها متاهة من الأروقة والممرات، لم أكن متأكدًا من أنهم سيصلون في الوقت المناسب إذا وقع هجومٌ فعلي.

كنت أشعر بالفخر الشديد لتولي تلك المهمة البسيطة، نظرًا لأني كنت لا أزال مجنَّدًا جديدًا بساقٍ عرجاء. لليلتين على التوالي، تولَّيتُ نوبة الحراسة مع الجنديين البنجابيين. كانا رجلين طويلَي القامة بملامحَ شرسة، أحدهما يدعى محمد سينج، والآخر عبد الله خان، وكلاهما كانا رجلَي حرب قديمين، حملا السلاح ضدنا في معركة تشيليانوالا. كانا يجيدان التحدث بالإنجليزية لكني لم أستطع حثَّهما على تبادل الحديث معي إلا قليلًا؛ فقد كانا يفضِّلان الوقوف معًا والثرثرة طوال الليل بلغة السيخ الغريبة تلك. أما أنا فقد اعتدت أن أقف خارج البوابة أنظر إلى النهر المتعرِّج العريض وأضواء المدينة الكبيرة المتلألئة. كان قرع الطبول وصلصلة الطُّمطُم، وصياح المتمرِّدين وعواؤهم وهم ثملون من أثر الأفيون وعشبة القنب المخدِّرة، كفيلًا بتذكيرنا طوال الليل بجيراننا الخطرين على الجانب الآخر من النهر. كل ساعتَين طوال الليل كان الضابط المسئول عن الوردية الليلية يمرُّ بجميع المواقع ليتأكد من أن كل شيء على ما يُرام.

وفي الليلة الثالثة، قضيتُ نوبة حراستي وسط الظلام والوحل، مع هطول قليل من المطر العنيف، وكان الوقوف في المدخل في مثل ذلك الجو ساعة تلو الأخرى أمرًا موحشًا.

حاولت مرارًا أن أحمل السيخيَّين على الحديث معي، لكن دون جدوى. وفي الثانية صباحًا، مرت دوريات الحراسة وكسرت ضجر الليل لوهلة. وبعد أن فقدت الأمل في فتح حديث مع رفيقيَّ، أخرجت غليوني وتركتُ بندقيتي كي أُشعل عود الثقاب. في تلك لحظة، انقضَّ عليَّ السيخيان. خطف أحدهما بندقيتي وصوَّبها إلى رأسي، بينما وضع الآخر سكينًا كبيرة على عنقي وأقسم وهو يجزُّ على أسنانه أن يغرسها في جسدي إن صدرت مني أي حركة.

ظننت للوهلة الأولى أن هذين الرجلَين متواطئان مع المتمرِّدين وأن تلك بداية هجومٍ مدبر. إذا وقعت بوابتنا في أيدي المتمردين الهنود، فسيسقط ذلك الحصن حتمًا، وستُعامل نساؤنا وأطفالنا كما عوملوا في كاونبور. قد تظنون أيها السادة أني أقول ذلك كي أدعم موقفي، لكني أقسم لكم أني عندما راودتني تلك الفكرة، مع أني كنت أشعر بحدِّ السكين على عنقي، فتحت فمي وأنا أنوي الصراخ لتنبيه حراس المركز الرئيسي؛ حتى ولو كانت هذه صرختي الأخيرة. بدا أن الرجل الذي كان يمسك بي قرأ أفكاري، لأني وأنا أستجمع قوَّتي لأصرخ، همس في أذني قائلًا: «لا تحدث جلبة، فهذا الحصن بأمان، ولا يوجد مُتمردون على تلك الجهة من النهر.» كان ثمة نبرة تنم عن صدق ما يقوله، وكنت أعرف أني إن رفعت صوتي فسيقتلني؛ فقد كنت أرى ذلك في عينَيه البُنِّيتَين؛ لذا أطبقت فمي منتظرًا سماع ما يريدان مني.

قال الأطول والأشرس بينهما ويدعى عبد الله خان: «اسمعني يا صاحب، إما أن تنضم لنا الآن أو نُسكتك للأبد. الأمر أعظم من أن نتردَّد. إما أن تكون معنا قلبًا وقالبًا، وتقسم بصليب المسيحيِّين على ذلك، أو نلقي بجثتك الليلة في قاع القناة ونعبر إلى إخواننا في جيش الثوار. لا يوجد اختيارٌ آخر، فماذا تختار، الحياة أم الموت؟ أمامك ثلاث دقائق لتُقرر؛ فالوقت يمر، ويجب أن نفعل ما يجب علينا فعله قبل أن تمر الدوريات مرةً أخرى.»

قلت: «وكيف لي أن أُقرر وأنتما لم تخبراني ماذا تطلبان مني؟ لكني أقول لكما إن كان ما تطلبانه سيُعرِّض الحصن للخطر، فلن أشارك فيه أبدًا؛ لذا يمكنك أن تغرس ذلك السكين في عنقي إن أردت.»

قال: «إنه لا يعرض الحصن للخطر؛ فجُلُّ ما نطلبه منك هو أن تفعل ما أتى بأهل بلادك إلى هنا، جلُّ ما نطلبه منك هو أن تصبح غنيًّا. إن انضممت لنا الليلة، فسنُقسم بحدِّ السكين، وبالقَسم الثلاثي الذي لم يحدث وأن نقضه أيُّ سيخي من قبلُ، أن تحصل على حصتك العادلة من الغنيمة. سيكون ربع الكنز ملكَك، وهذا هو العدل.»

سألت: «لكن ما هو ذلك الكنز؟ أنا على أتم الاستعداد لأن أصبح ثريًّا، إن أخبرتماني ما السبيل إلى ذلك.»

قال: «أتقسم إذن برفات أبيك، وشرف أمك، وصليب عقيدتك، ألا تبطش علينا بيدك أو تتحدث عنا بسوء الآن أو بعدئذٍ؟»

أجبت: «أقسم على ذلك، بشرط ألَّا يتعرض الحصن للخطر.»

«إذن، أقسم أنا ورفيقي أن نعطيك ربع الكنز الذي سنقسمه بالتساوي بيننا نحن الأربعة.»

قلت: «لكننا ثلاثة فقط.»

قال: «لا، بل يجب أن يحصل دوست أكبر على حصته أيضًا؛ سنخبرك بالقصة بينما ننتظرهم. هلا وقفت أمام البوابة يا محمد سينج ونبهتنا لقدومهم؟ قضيَ الأمر إذن يا صاحب، سأُخبرك بالأمر لأني أعرف أن الفرنجي يحترمُ يمينه، وأنه بإمكاننا الوثوق بك. أما إن كنت هنديًّا كاذبًا، لكُنَّا أرقنا دمك وألقينا بجثتك في الماء حتى وإن حلفتَ بكل الآلهة في معابدها المزيَّفة. لكن السيخ يعرفون الإنجليز كما يعرف الإنجليز السيخ. أصغِ إذن لما سأقوله لك.»

وأردف: «يوجد أميرٌ حاكم في المقاطعات الشمالية لديه ثروة طائلة، مع أن أراضيه ليست شاسعة. لقد ورث عن أبيه الكثير وجمع الكثير أيضًا بنفسه، فهو بخيل بطبعه يكتنز الذهب ولا يُنفق منه. عندما اندلعت المشاكل، صار حليفًا لكلا الطرفين؛ المتمرِّدين ورجال شركة الهند الشرقية. ولكن سرعان ما بدا له أن أيام الرجال البيض قد ولَّت؛ فقد كانت أخبار موتهم والإطاحة بهم تأتيه من كل مكان. لكن لأنه رجلٌ شديد الحرص، وضع خطة تضمن له الاحتفاظ بنصف ثروته على الأقل مهما حدث. احتفظ بالذهب والفضة بالقرب منه في خزائن قصره، لكنه وضع أقيم الأحجار الكريمة النفيسة واللآلئ النادرة التي يمتلكها داخل صندوقٍ حديدي وأرسله مع خادمٍ أمين متنكِّر في هيئة تاجر إلى حصن أجرا كي يُخبِّئه هناك حتى تستقر الأوضاع في البلاد. وبهذا، إن انتصر المتمردون يكون لديه أمواله، لكن إن غلبهم جنود شركة الهند الشرقية، فستكون جواهره في الحفظ والصون. وبعد أن قسم ثروته على هذا النحو، وجَّه كامل مجهوداته إلى دعم قضية المتمردين لأنهم كانوا هم الأقوى على حدود مقاطعته. وبقيامه بذلك، يا صاحب، صارت ممتلكاته حقًّا مكتسبًا لأولئك المخلصين لقضيتهم.

أما ذلك التاجر المتنكر، الذي يرتحل تحت اسم أشميت، فهو موجود الآن في مدينة أجرا ويريد أن يدخل إلى الحصن. يرافقه في سفره أخي غير الشقيق دوست أكبر، الذي

يعرف سرَّه. وعده دوست أكبر بأن يرشده الليلة إلى بوابةٍ خلفية جانبية للحصن واختار تلك البوابة بالتحديد. وسيأتي إلى هنا عما قريب، وسيجدني أنا ومحمد سينج بانتظاره. المكان هنا معزول ولن يعرف أحد بقدومه. سيختفي التاجر أشميت من على ظهر الأرض وسنقسم كنز الأمير العظيم بيننا. فما قولك يا صاحب؟»»

وتابع سمول سرد حكايته قائلًا: «في ورسترشاير، حياة الإنسان لها هيبة وقدسية، لكن الأمر يختلف عندما تكون محاطًا بالنيران والدم، وتعتاد أن تلاقي الموت عند كل زاوية. لم أُعر اهتمامًا لمسألة حياة التاجر أشميت أو موته فلم يكن ثمة فرق بالنسبة إليَّ، لكن الحديث عن الكنز أجَّج رغبتي في امتلاكه، وتصوَّرتُ ما يمكنني فعله به عندما أعود إلى بلدتي القديمة، وكيف ستندهش عائلتي من عودة ابنهم العديم النفع وقد امتلأت جيوبه بالعملات الذهبية. حينها حسمتُ أمري بالفعل، لكن عبد الله خان، ظنًّا منه بأني ما زلت متردِّدًا، ألحَّ عليَّ أكثر قائلًا: «فكِّر يا صاحب، إن اعتقل قائد الوحدة ذلك الرجل، فسيشنقه أو يرديه بالرصاص، وستستولي الحكومة على الكنز، ولن ينال أحد منه روبيةً واحدة. لكن بما أنه سيقع في أيدينا نحن، فلم لا نستولي على الكنز أيضًا؟ ستكون الجواهر في أمان معنا تمامًا كما لو كانت في خزائن شركة الهند الشرقية. وسيحصل كلٌّ منا على ما يكفي لجعله رجلًا ثريًّا عظيم الشأن. لن يعرف أحد بالأمر، فنحن هنا بمعزل عن الجميع. أين يمكننا العثور على مكان أنسب من هذا لتنفيذ غرضنا؟ مرةً أخرى، أخبرنا يا صاحب، هل أنت معنا أم نعتبرك عدونا؟»

قلت: «معكم قلبًا وقالبًا.»

أجابني وهو يناولني بندقيتي: «هذا جيد، نحن نثق بك، فعليك الالتزام بكلمتك كما سنلتزم نحن بكلمتنا. ما علينا الآن سوى انتظار أخي والتاجر.»

سألته: «هل يعرف أخوك بما تنوي فعله؟»

«إنه صاحب الخطة، فهو مَن وضعها. والآن سنذهب إلى البوابة ونشارك محمد سينج في حراستها.»

كان المطر لا يزال ينهمر دون انقطاع؛ فقد كنا في بداية موسم المطر. كانت السحب البنية الكثيفة تغطي السماء، وكان يصعب الرؤية إلا لمسافةٍ قصيرة. كان ثمة خندقٌ مائيٌّ أمام الباب، لكن كانت المياه قد جفَّت في بضعة مواضع منه فكان عبوره سهلًا. كان من الغريب عليَّ أن أقف هناك مع هذَين البنجابيَّين المتوحشَين في انتظار الرجل الذي يأتي ليَلقى حتفه.

فجأةً لمحت بصيص مصباحٍ مغطًّى على الجانب الآخر من الخندق. اختفى بين أكوام الركام ثم عاود الظهور مرةً أخرى وهو يتقدم ببطء في اتجاهنا.

هتفت: «ها هما ذان!»

همس عبد الله: «ستَعترض طريقه أنت يا صاحب كالمعتاد، لا تفعل ما قد يُثير خوفه. أرسلنا إلى الداخل معه وسنتكفَّل نحن بالباقي، وأنت ابقَ هنا للحراسة. استعدَّ لإزالة غطاء المصباح كي نتأكد من أنه رجلنا المطلوب.»

استمر الضوء في التأرجُح نحونا، تارة يتوقَّف وتارة يتقدم، حتى تراءى لي جسمان داكنان على الجانب الآخر من الخندق. تركتهما ينزلان ضفة الخندق المنحدرة ويخوضان في الوحل، ثم يصعدان حتى منتصف الطريق إلى البوابة قبل أن اعترض طريقهما.

قلت بصوتٍ خافت: «من هناك؟»

أتتني الإجابة: «صديقان.» رفعت الغطاء عن مصباحي فغمر فيض من الضوء وجهَيهما. كان أحدهما سيخيًّا ضخمًا له لحيةٌ سوداء تمتد حتى خصره تقريبًا. وفي حياتي لم أرَ رجلًا بذلك الطول إلا في العروض الترفيهية. أما الآخر فقد كان رجلًا قصيرًا بدينًا مكتنزًا، يرتدي عمامةً صفراءَ كبيرة ويحمل في يده صرةً ملفوفة بوشاح. بدا كأنه يرتجف رعبًا، فقد كانت يداه ترتعشان كما لو أنه يعاني من حمَّى الملاريا، وظل يتلفَّت برأسه يمينًا ويسارًا بعينَين ضيقتَين لامعتَين مثل فأر يقدم على الخروج من جحره. سرَت في جسدي قشعريرة عندما فكرت في أننا على وشك قتله، لكني تذكرت الكنز، وعندها تحجَّر قلبي في صدري كحجر صوان. حين رأى وجهي الأبيض، أطلق صيحة سعادة قصيرة وأتاني يركض.

قال لاهثًا: «أرجو حمايتك يا صاحب، أرجو حمايتك للتاجر التعيس أشميت. لقد قطعتُ راجبوتانا مسافرًا كي أحتمي بحصن أجرا. لقد سُلِبت وضُربت واستُغلِلت لأني مناصر للشركة. ستكون هذه ليلة سعدي إذ أصبحت آمنًا مرةً أخرى، أنا وممتلكاتي المتواضعة.»

سألته: «ماذا معك في الصرة؟»

أجاب: «صندوقٌ حديدي يحتوي على بضعة متعلقاتٍ عائلية لا قيمة لها لدى الآخرين لكني سأحزن كثيرًا إن فقدتها. مع هذا أنا لست مُتسوِّلًا، أيها الصاحب الشاب، وسأكافئك أنت وقائدك إن آويتماني كما أطلب.»

لم أشأ أن أُطيل الحديث مع الرجل أكثر من ذلك؛ فكلما أطلت النظر إلى وجهه المُمتلئ الخائف بدا قتله بدمٍ بارد أصعب عليَّ. كان من الأفضل أن نُنهي الأمر سريعًا.

قلت: «خذاه للمركز الرئيسي.» حاصره السيخيان، وتبعهم العملاق وعبروا جميعًا البوابة المظلمة. لم يُحاصر الموت أحدًا قط كما كان يحاصره من كل جانب في هذه اللحظة. ظللت واقفًا عند المدخل ممسكًا بالمصباح.

كنت أسمع وقع أقدامهم المنتظم يُدوِّي في الممرات الخاوية. وفجأة توقفوا وتعالت أصواتهم ثم سمعتُ شجارًا، تلاه صوت ضربات. بعد لحظة، سمعت وقع خطواتٍ سريعة تتجه نحوي ولهاث رجل يجري؛ مما أثار رعبي. وجهت مصباحي نحو الممر الطويل المستقيم، فرأيت الرجل البدين يجري بسرعة الريح والدماء تسيل من وجهه، ووراءه يثب السيخي العملاق ذو اللحية السوداء مثل النمر وفي يده سكِّين يلمع نصله. لم أرَ في حياتي رجلًا يعدو بتلك السرعة كذلك التاجر القصير. كان يتقدَّم على السيخي وكنت أعرف أنه إن تخطاني وخرج إلى العراء فسينجو بنفسه. رقَّ قلبي له، لكن تفكيري في الكنز أقسى قلبي وأنبت فيه الحقد. أطلقت النار من بندقيتي بين قدميه حين تخطاني وهو يعدو، فتشقلب مرتَين مثل أرنب أُصيب بطلقة. وقبل أن يحاول الوقوف على قدمَيه، كان السيخي قد انقض عليه وطعنه طعنتين بالسكين في جنبه. لم يئن الرجل أو يحرِّك ساكنًا، بل ظل مستلقيًا حيث سقط. أعتقد أنه كُسر عنقه على إثر السقطة. وها أنا ذا أفي بوعدي كما ترون أيها السادة؛ فأنا أحكي لكم كل تفاصيل ذلك الأمر كما حدثت بالضبط سواء كانت في صالحي أم لا.»

ثمَّ سكت ومد يديه المكبلتَين ليتناول كأس الويسكي المزوج بالماء الذي أعده له هولمز. بالنسبة إليَّ، أعترف أنني أدركت كم كان الرجل بشعًا، ليس فقط لتورُّطه في تلك الجريمة الشنعاء، لكن أيضًا لأسلوبه الوقح واللامبالي في سرد تفاصيلها. فأيًّا كان العقاب الذي ينتظره، شعرت بأني لن أتعاطف أبدًا معه. جلس هولمز وجونز واضعَين يدَيهما على ركبتيهما، وعلى وجهيهما ارتسمت نفس نظرة الامتعاض. قد يكون لاحَظَ هذا، فقد حمل صوته وأسلوبه نبرة تحدٍّ وهو يتابع كلامه قائلًا: «كان ما فعلته أمرًا سيئًا للغاية بالتأكيد، لكني أود أن أعرف كم رجلًا إن وُضع مكاني كان سيرفض أن يَحصل على حصة من تلك الغنيمة، إن كان يعرف أنه سيُذبح إن رفض. هذا بالإضافة إلى أن حياته كانت مقابل حياتي بمجرد أن أصبح داخل أسوار الحصن. فإن كان قد فرَّ من الحصن، كان الأمر سيَنكشِف برمته، وكنت سأخضع لمحاكمةٍ عسكرية وأُعدَم رميًا بالرصاص على الأرجح؛ فالناس لا يتساهلون في مثل تلك الأوقات.»

قال هولمز بعد برهة: «تابع روايتك.»

«حسنًا، حملناه إلى الداخل أنا وعبد الله وأكبر؛ فقد كان مع قِصر قامته، ثقيل الوزن. تركْنا محمد سينج عند الباب لحراسته. أخذناه إلى مكان كان السيخيان قد أعداه سلفًا. كان يبعد مسافةً كبيرة، حيث ينتهي ممرٌّ متعرج إلى ردهةٍ كبيرةٍ خاوية، جدرانها المبنية من الطوب متهدمة. كان ثمة هبوط في أحد جوانب أرضيتها الطينية مثل قبرٍ طبيعي، وهناك تركنا التاجر أشميت بعد أن غطَّيناه ببعض اللَّبِنات المتخلخلة. وبعد أن أتممنا ذلك، عدنا جميعًا إلى الكنز.

كان يوجد حيث أسقطه التاجر عندما هاجموه للمرة الأولى، وهو نفس الصندوق الذي يستقر الآن مفتوحًا على طاولتك. وكان المفتاح مربوطًا بشريطٍ حريري إلى المقبض المنقوش في أعلى الصندوق. فتحناه، ولمعَت تحت ضوء المصباح مجموعة من المجوهرات كتلك التي قرأتُ عنها وتخيَّلتُها وأنا ولدٌ صغير في بيرشور. كان لمعانها يخطف الأبصار. وبعد أن متعنا أعيننا بالنظر إليها، أفرغنا الصندوق وأعددنا قائمة بمحتوياته من المجوهرات. كان يحتوي على مائة وثلاث وأربعين ألماسةً نقية، إحداها تُدعى حسبما أظن «المغولي العظيم»، ويقال إنها ثاني أكبر ألماسة في العالم. وكان يحتوي أيضًا على سبع وتسعين زمردةً خالصة، ومائة وسبعين ياقوتةً حمراء، بعضها كان صغيرًا جدًّا. وكذلك كان به أربعون حجرًا من العقيق الأحمر، ومائتان وعشر من الياقوت الأزرق، وواحد وستون من العقيق، وعددٌ كبير من أحجار الزبرجد والعقيق اليماني وعين القط، والفيروز، وأحجارٌ أخرى لم أكن ملمًّا بأسمائها حينئذٍ، مع أني عرفت عنها أكثر منذ ذلك الحين. بالإضافة إلى هذا، كان ثمة حوالي ثلاثمائة لؤلؤةٍ قيمة، اثنتا عشرة منها كانت تُزيِّن إكليلًا من الذهب. وبالمناسبة، كانت هذه اللآلئ قد أُخرجت من الصندوق ولم أجدها فيه عندما استعدته.

بعد أن حصرنا الكنوز، أعدناها إلى الصندوق وحملناه إلى البوابة كي نريه لمحمد سينج. وبكل جدية، جددنا قَسَمنا بأن يقف كلٌّ منا بجانب الآخر وأن نحفظ سرَّنا. اتفقنا على أن نخبئ غنيمتنا في مكانٍ آمن حتى يعمَّ السلام البلاد مرةً أخرى، ثم نقسمه بيننا. لم يكن هناك داعٍ لتقسيمه في ذلك الوقت؛ لأنه إن عُثِر بحوزتنا على جواهرَ ثمينةٍ كتلك، فستُثار الشبهات، كما أنه لا وجود لأي خصوصية في الحصن، ولا يوجد مكان يمكن لنا الاحتفاظ بها فيه؛ لذا حملنا الصندوق إلى الردهة نفسها التي دفنَّا فيها الجثة، وهناك صنعنا تجويفًا خلف بعض اللبنات في الجدار الأكثر تماسكًا بالردهة، ووضعنا فيه كنزنا.

تذكرنا المكان جيدًا، وفي اليوم التالي، رسمت أربعة مخططات، واحد لكلٍّ منا، ووضعت أدناها علامة الأربعة، فقد أقسمنا على أن يتصرَّف كل واحد منا لمصلحة الجميع، كي لا يعمل أيٌّ منا لمصلحته الشخصية. بإمكاني أن أُقسِم بكل ثقة أني لم أَخُن هذا القَسم أبدًا.

لا داعي لأن أخبركم أيها السادة بالنتيجة التي آل إليها العصيان الهندي. فبعد أن سيطر ويلسون على دلهي وحرَّر السير كولن لكناو، قُصِم ظهر حركة التمرد. انهالت علينا قوات الدعم، وفرَّ الصاحب نانا إلى خارج الحدود. أتت وحدةٌ برية بقيادة الكولونيل جريثهد إلى أجرا وأخلتْها من المتمرِّدين. بدأ السلام يعمُّ البلاد، وبدأنا نأمل نحن الأربعة أن الوقت الذي سنتمكن فيه من المغادرة بأمان بحصتنا من الغنيمة قد اقترب. لكن تبدَّدت آمالنا في لحظة، عندما قُبض علينا بتهمة قتل أشميت.

حدث الأمر كما يلي؛ حين عهد الأمير بجواهِره لأشميت كان هذا لأنه يعرف أنه رجلٌ أمين. لكن رجال الشرق شكَّاكون بطبعهم؛ فقد وكَّل ذلك الأمير خادمًا يثق به أكثر بالتجسُّس على الأول. أُمِر الخادم الثاني بألا يدع أشميت يغيب عن نظره أبدًا، وكان يتبعه كظله. كان يتبعه تلك الليلة ورآه يعبر البوابة. ظن بالطبع أنه لجأ إلى الحصن طالبًا الأمان، وقدَّم هو الآخر طلبًا للدخول في اليوم التالي، لكنه لم يستطع العثور على أشميت؛ ارتاب في الأمر حتى إنه تحدث إلى رقيب الحراس، الذي بدوره نقل كلامه إلى القائد. وعلى التوِّ أُجريت عملية بحث دقيقة، واكتُشِفَت الجثة. وبالتالي في نفس اللحظة التي شعرنا فيها بأننا صرنا بأمان، قُبض علينا نحن الأربعة ومثُلنا للمحاكمة بتهمة القتل؛ ثلاثة منا لأنهم كانوا يحرسون البوابة في تلك الليلة والرابع لأنه كان برفقة القتيل. لم يأتِ أي ذكر للجواهر في المحاكمة؛ لأن الأمير كان قد عُزِل وطُرد إلى خارج الهند؛ لذا لم يُعِرْها أحد اهتمامًا. لكن جريمة القتل اكتُشفت، وكان من المؤكَّد أن لنا جميعًا يدًا فيها. حُكم على السيخ الثلاثة بالسجن المؤبد مع الشغل، وحُكم عليَّ بالإعدام، لكن خُفِّفت عقوبتي لتصبح مثل باقي رفاقي.

أصبح وضعنا صعبًا للغاية. كنا مكتوفي الأيدي نحن الأربعة وفرصتنا في الخروج من السجن ضئيلة جدًّا، بينما نكتم في أعماقنا سرًّا كان ليجعلنا نسكن القصور لو أننا استطعنا الاستفادة منه. كانت قلوبنا تنفطر بسبب اضطرارنا لتحمُّل ركلات الحراس المتغطرسين وصفعاتهم، مع اضطرارنا إلى أكل الأرز وشرب الماء فقط، بينما تنتظرنا ثروةٌ طائلة في الخارج. كان من الممكن أن يدفعني ذلك للجنون لكني لطالَما كنتُ عنيدًا؛ لذا تمالكت نفسي وظللت أترقَّب أي فرصة.

وأخيرًا لاحت لي تلك الفرصة. فقد نُقِلتُ من أجرا إلى مدراس، ومنها إلى جزيرة بلير في جزر أندمان. كان الرجال البيض قليلون جدًّا في تلك المستعمَرة، ولأني أحسنت التصرف من البداية، وجدتني بعد فترةٍ قصيرة قد صرت شخصًا له امتيازات. أودعت كوخًا في هوب تاون، وهو مكانٌ صغير يقع على منحدرات جبل هارييت، وتُرِكت أتصرف بحرية. إنه مكانٌ موحش، تتفشى فيه الحمى، وخارج حدود أراضينا كان كل مكان يعجُّ بالسكان الأصليين المتوحِّشين آكلي لحوم البشر، الذين كانوا على أتمِّ استعداد لقتلنا بأسهمهم المسمَّمة إن سنحت لهم الفرصة. كان ثمة أعمال تنقيب وحفر خنادق وزراعة اليام، وعدة مهامَّ أخرى؛ لذا كنا مشغولين طوال النهار، لكن في المساء يتسنَّى لنا قضاء بعض الوقت فيما نريد. كان من ضمن ما تعلمته تركيب عقاقير للطبيب الجراح، وألممت بمعرفةٍ سطحية عن هذا المجال. كنت طوال الوقت أبحث عن فرصة للهروب، لكننا كنا نبعد مئات الأميال عن أي جزيرةٍ أخرى، وكانت رياح بحار تلك المنطقة ضعيفة أو ساكنة؛ لذا كان الهروب من الجزيرة صعبًا للغاية.

كان الدكتور سومرتون الجراح شابًّا نبيهًا ومحبًّا للعب القمار، وكان الضباط اليافعون الآخرون يجتمعون في غرفته كل مساء للعب القمار. كانت العيادة حيث أُركِّب العقاقير مجاورة لغرفة جلوسه، وكان بينهما نافذة صغيرة. أحيانًا، عندما كنت أشعر بالوحدة، كنت أطفئ مصباح غرفة الجراحة، وأستمع إلى أحاديثهم وأشاهد لعبهم وأنا واقف بجوار تلك النافذة. كنت أنا أيضًا مولعًا بلعب الورق، وعندما كنت أشاهدهم يَلعبون كنت أشعر وكأني أشاركهم اللعب. كان هؤلاء الضباط هم الرائد شولتو والنقيب مورستان والملازم بروملي براون، المسئولين عن قيادة القوات المحلية، بالإضافة إلى الجراح نفسه، واثنين أو ثلاثة من مسئولي السجن، وهم مهرة في اللعب وكانوا يميلون إلى اللعب المضمون. كانوا جماعةً صغيرةً هادئة.

لاحظت بعد فترة وجيزة أمرًا؛ وهو أن العسكريِّين كانوا يخسرون دائمًا بينما كان الموظفون المدنيون يربحون دائمًا. لا أعني أنه كان هناك أي غش يحدث، لكن هكذا كان الوضع؛ فحراس السجن لم يفعلوا الكثير بخلاف لعب الورق منذ أن جاءوا إلى جزر أندمان، وكان كلٌّ منهم يعرف أسلوب الآخرين في اللعب إلى حدٍّ ما، بينما كان الجنود يلعبون لمجرد تمضية الوقت وكانوا يرمون أوراقهم دون تخطيط. ليلة تلو الأخرى، كان الجنود يُغادرون طاولة اللعب أفقر مما جلسوا إليها، وكلما ازدادوا فقرًا، ازداد حماسهم للعب. كان الرائد شولتو أكثرهم تضرُّرًا؛ فقد اعتاد أن يلعب بالأوراق النقدية والذهب في

بادئ الأمر، لكنه سرعان ما صار يلعب بكمبيالات بمبالغَ كبيرة. كان أحيانًا يفوز بعدة جولات؛ مما يُثير حماسه، لكن ما يلبث أن يعاديه الحظ أكثر من ذي قبل. كان يَهيم على وجهه طوال النهار والغضب يملؤه، وأصبح يشرب الخمر بكميات تضر بصحته.

ذات ليلة، كانت خسائره تفوق المعتاد. كنت جالسًا في كوخي عندما أتى يترنح هو والنقيب مورستان في طريقهما إلى مسكنهما. كانا صديقَين مقربَين لا يفترقان أبدًا. كان الرائد يتحدث بغضب عن خسائره.

سمعته يقول في أثناء مرورهما بجانب كوخي: «لقد انتهى أمري يا مورستان. سأضطر إلى تقديم استقالتي؛ فقد أصبحتُ مفلسًا.»

قال صاحبه وهو يربت على كتفه: «هراء يا صديقي العزيز! لقد واجهت أنا أيضًا مشكلةً صعبة، لكن ...» كان هذا كل ما استطعت سماعه من حديثهما، لكنه كان كافيًا لأن يجعلني أفكر في خطة.

وبعد بضعة أيام، كان الرائد شولتو يمشي على الشاطئ، فانتهزت تلك الفرصة كي أتحدث إليه.

قلتُ: «أريد أن أستشيرك في أمر أيها الرائد.»

أخرج سيجاره من فمه وسألني: «حسنًا يا سمول، ما هو؟»

قلتُ: «أردت أن أسألك يا سيدي مَن أفضل شخص قد تُسلِّم له كنزًا مخبَّأً؟ أنا أعرف مكان إخفاء كنز يساوي نصف المليون، ولأني لا أستطيع الاستفادة منه بنفسي، فكرت أن أُسلِّمه للسلطات المعنية، لعلهم يُخفِّفون عقوبتي.»

شهق وقال وهو يحدق في وجهي ليتأكد من صدقي: «نصف مليون يا سمول؟»

قلت: «هذا صحيح يا سيدي، في صورة جواهر ولآلئ. وهي ترقد بانتظار من يأخذها. والغريب أن مالكها الحقيقي خارج عن القانون ولا يحقُّ له المطالبة بها؛ لذا فهو ملك لأول من يضع يده عليه.»

قال متلعثمًا: «إلى الحكومة يا سمول؛ تُسلِّمها إلى الحكومة.» لكنه قالها بتردد، فأيقنت حينها أني أثَّرت عليه.

قلت بهدوء: «أتظن إذن يا سيدي أن عليَّ أن أعطي تلك المعلومة للحاكم العام؟»

قال: «حسنًا! أرى ألا تتسرَّع في التصرف وإلا فقد تندم. أخبرني القصة كلها يا سمول، أعطني الوقائع.»

أخبرته بالقصة بأكملها بعد أن عدلت بعض تفاصيلها كي لا يتعرف على الأماكن. وبعد أن انتهيت، ظل واقفًا في مكانه لا يُحرِّك ساكنًا، يفكر بعمق. كنت أرى من ارتعاش شفتيه أنه يخوض صراعًا داخليًّا.

وأخيرًا قال: «هذا أمرٌ خطير جدًّا يا سمول. لا تتفوَّه بكلمة عنه لمخلوق حتى أراك مرةً أخرى عما قريب.»

بعدها بليلتَين أتى ومعه صديقه النقيب مورستان إلى كوخي في جوف الليل حاملَين مصباحًا، وقال: «أريد فقط أن يسمع النقيب مورستان القصة منك أنت يا سمول.»

أعدت على مسامعهما القصة كما حكيتُها من قبل.

قال: «تبدو القصة حقيقية، وجديرة بأن نتصرف بناءً عليها، أليس كذلك؟»

أومأ النقيب مورستان.

قال الرائد: «اسمع يا سمول، لقد تناقشت أنا وصديقي هذا في الأمر واتفقنا على أن سرَّك هذا لا شأن للحكومة به؛ فهو في النهاية أمر يخصُّك أنت، ولديك مطلق الحرية في التعامل معه حسبما ترى بالطبع. والآن السؤال هو: ما الثمن الذي تطلبه مقابل ذلك السر؟ فنحن قد نرغب في تولي ذلك الأمر والنظر فيه على الأقل، إن استطعنا أن نتَّفق على الشروط.» كان يحاول تصنُّع الهدوء واللامبالاة في أثناء حديثه، لكني كنت أرى الحماس والطمع يلمعان في عينَيه.

أجبت وأنا أحاول تصنُّع الهدوء نفسه بدوري، مع أني كنت متحمِّسًا بقدره: «حسنًا، أيها السادة، ثمَّة صفقةٌ واحدة فقط يمكن أن يجريها أي رجل في موقفي. أريدكما أن تساعداني ورفقائي الثلاثة على أن نصبح طلقاء. عندها سوف نعتبركما شريكَين لنا، ونعطيكما حصة الخمس تقتسمانها فيما بينكما.»

قال: «حسنًا! الخمس! هذا ليس مغريًا بما يكفي.»

قلت: «هذا يعني خمسين ألفًا لكلٍّ منكما.»

قال: «لكن كيف سنمنحك حريتك؟ أنت تعلم جيدًا أن ما تطلبه مستحيل.»

أجبت: «على الإطلاق، لقد فكَّرت في ذلك الأمر بأدق تفاصيله. المانع الوحيد لهروبنا هو أننا لا نستطيع الحصول على قارب يصلح للرحلة، ولا مؤن تكفينا لوقتٍ طويل. توجد العديد من القوارب الشراعية الصغيرة واليخوت في كلكوتا أو مدراس تصلح لذلك الغرض. أحضِرا واحدًا إلى هنا، ونحن سنغادر على متنه ليلًا، وإن أنزلتمانا في أي مكان على الساحل الهندي فستكونان قد أتممتما دوركما من الصفقة.»

قال: «فقط لو كان علينا مساعدتك وحدك.»

أجبته: «إما الجميع وإما لا أحد، لقد تعاهدنا على ذلك. يجب أن يتصرف أربعتنا دائمًا معًا.»

قال: «أرأيت يا مورستان، سمول هذا رجل يحفظ كلمته، ولا يُدير ظهره لأصدقائه. أعتقد أنه جدير بثقتنا.»

أجاب مورستان: «هذا عملٌ غير قانوني. لكن كما تقول، سوف يكون المال تعويضًا كافيًا وزيادة عن رتبنا العسكرية.»

قال الرائد: «حسنًا يا سمول، أعتقد أننا سنُحاول تنفيذ شرطك. لكن يجب أن نختبر صحة روايتك أولًا. أخبرني بمكان الصندوق وسوف أحصل على إذن بالغياب وأذهب إلى الهند على متن قارب الإغاثة الشهري لأتحقَّق أكثر من الأمر.»

قلت وأنا أزداد هدوءًا بينما كان يزداد هو حماسًا: «ليس بهذه السرعة. يجب أن أحصل على موافقة رفقائي الثلاثة أولًا. كما أخبرتكما فإما الجميع أو لا أحد.»

قاطعني قائلًا: «هراء! ما شأن ثلاثة رجال سود باتفاقنا؟»

قلت: «سود أو بيض، هم شركائي، ولا بد أن نكون معًا.»

انتهي الأمر باجتماع ثانٍ حضره محمد سينج وعبد الله خان ودوست أكبر. ناقشنا الأمر مرةً أخرى وتوصلنا أخيرًا لاتفاق. اتفقنا على أن نُعطي الضابطَين مخططات للجزء المخبَّأ به الكنز بحصن أجرا، ونحدد بها المكان الذي خبأناه فيه خلف الجدار. كان من المفترض أن يذهب الرائد شولتو إلى الهند كي يتحقق من صحة كلامنا. وإن وجد الصندوق، كانت الخطة أن يتركه في مكانه ويرسل زورقًا صغيرًا مزوَّدًا بما يكفي من المؤن لرحلتنا، ينتظرنا على مقربة من ساحل جزيرة روتلاند، حيث من المفترض أن نتَّجه، ثم يعود هو إلى ممارسة مهامِّه. بعدها يقدم النقيب مورستان طلب إجازة، ويقابلنا في أجرا، وهناك نُقسِّم الكنز بصفةٍ نهائية ويأخذ نصيبه ونصيب الرائد منه. تعاهدنا على ذلك بأغلظ الأيمان التي يُمكن أن تردَ على العقل أو تجري على اللسان. سهرت طوال الليل ممسكًا بالورق والقلم، وبحلول الصباح كنت قد انتهيت من تجهيز المخطَّطين، وذيَّلتُهما بعلامة الأربعة — عبد الله، وأكبر، ومحمد، وأنا.

حسنًا أيها السادة، لقد أرهقتُكم بروايتي الطويلة، وأنا أعرف أن صديقي السيد جونز يتوق لوضعي خلف القضبان. سوف أختصر قدر الإمكان. ذهب النذل شولتو إلى الهند لكنه لم يعد مرةً أخرى. أراني النقيب مورستان اسمه في كشف المسافرين على متن

أحد قوارب البريد بعدها بفترةٍ وجيزة. تُوفي عمُّه تاركًا له ثروة، فترك الجيش، إلا أن ذلك لم يثنِه عن التصرف تجاهنا نحن الخمسة بتلك الدناءة. ذهب مورستان إلى أجرا بعدها بفترةٍ وجيزة ليكتشف — كما توقعنا — أن الكنز قد اختفى. سرقه ذلك المحتال بأكمله، دون أن يَفي حتى بشرطٍ واحد من شروط الاتفاق الذي حصل مقابله على هذا السر. منذ ذلك اليوم وأنا أحيا فقط من أجل الانتقام؛ أفكِّر فيه نهارًا وأحلم به ليلًا. صار شغفًا عميقًا يسيطر عليَّ. لم أكترث للقانون، ولا لحبل المشنقة؛ ففكرة الهروب وتعقُّب شولتو حتى ألفَّ يدي حول عنقه كانت الفكرة الوحيدة المسيطرة عليَّ. حتى كنز أجرا أصبح أمرًا ثانويًّا بالمقارنة بقتل شولتو.

لقد عاهدت نفسي على أشياءَ كثيرة في حياتي، ولم أُخلف أي عهد قطعته لنفسي قط. لكن مرت سنواتٌ طويلة حتى استطعت الوفاء به. أخبرتكم أني كنت قد تعلمت القليل عن العقاقير. في أحد الأيام، عندما كان الدكتور سومرتون يلازم الفراش لإصابته بحمَّى، أمسكت مجموعة من المساجين بأحد السكان المحليين لجزيرة أندمان في الغابة. كان مريضًا مرضًا مُميتًا، وكان قد قصد مكانًا منعزلًا كي يموت فيه. أوليته رعايتي، مع أنه كان مرضه خطيرًا مثل أفعى صغيرة، وبعد عدة أشهر تحسَّنت حالته وأصبح قادرًا على المشي. بعدها صار شديد الإعجاب بي، ولم يُرد العودة إلى غابته بل أصبح يتسكع طوال الوقت على مقربة من كوخي. تعلمت منه بعضًا من لغته؛ مما زاد من إعجابه بي.

كان تونجا — فذلك كان اسمه — مراكبيًّا بارعًا، وكان يمتلك قارب تجديف كبيرًا وواسعًا. وعندما أدركت أنه صار مخلصًا لي ومستعدًّا لفعل أي شيء في سبيل خدمتي، رأيت فرصتي للهرب، وحدثته عن الأمر. كانت الخطة أن يأتي بقاربه في ليلة محدَّدة إلى مرفأٍ قديم لا حراسة عليه ويأخذني من هناك. أعطيته تعليمات بأن يُحضر معه عدة قناني مملوءة بالماء والكثير من حبات اليام وجوز الهند والبطاطا الحلوة.

كان تونجا الصغير مُخلصًا ووفيًّا لأقصى درجة؛ ففي الليلة المُحددة، أحضر قاربه إلى المرفأ. لكن صادف وجود حارس سجن عند المرفأ؛ باثاني بغيض كان لا يترك فرصة إلا ويتعمَّد إهانتي وإيذائي. كنت دائمًا أعاهد نفسي على الانتقام منه، وها قد جاءت فرصتي. فكأن القدر وضعه في طريقي كي أفي بعهدي قبل أن أغادر الجزيرة. كان يقف أمام الضفة، ظهره لي حاملًا قربينته على كتفه. بحثت عن حجر كي أُهشِّم رأسه به، لكنني لم أجد، ثم تراءت لي فكرة تُمكِّنني من الحصول على سلاح؛ جلست على الأرض في الظلام وفككت ساقي الخشبية. وفي ثلاث وثباتٍ طويلة انقضضتُ عليه؛ هم بإطلاق النار عليَّ من

قريبنته، لكني ضربته ضربةً قاضية هشمت الجانب الأمامي لجمجمته. ولا يزال موضع انشقاق الخشب إثر الضربة ظاهرًا ويمكنكم رؤيته. سقط كلانا على الأرض، لأني فقدت توازني، لكن عندما نهضت وجدته لا يزال راقدًا، لا يحرك ساكنًا. اتجهت نحو القارب، وفي خلال ساعة كنا في عرض البحر. أحضر تونجا معه كل ما يملك في الحياة، أسلحته وأوثانه. ومن ضمن ما أحضر معه حربةٌ طويلة من البامبو، وحصيرة مصنوعة من قشر نبات جوز الهند الأندماني؛ صنعتُ منهما ما يشبه الشراع. ظللنا نتخبط لعشرة أيام، نأمل أن يحالفنا الحظ، وفي اليوم الحادي عشر، انتشلتنا باخرةٌ تجارية كانت مسافرة من سنغافورة إلى جدة، ومعها مجموعة من الحجاج الملاويين. كانت مجموعةً غريبة الأطوار، وسرعان ما استطعت أنا وتونجا أن نندمج وسطهم. كانت تُميِّزهم خصلةٌ طيبة للغاية وهي أنهم كانوا يتركون المرء لحاله ولا يطرحون أي أسئلة.

لن ترغبوا في سماع المغامرات التي خضتها أنا ورفيقي الصغير، فسيستغرق سردها حتى طلوع الشمس؛ فقد همنا على وجهنا حول العالم، ودائمًا كان يحدث ما يحول بيننا وبين الوصول إلى لندن، لكن طوال الوقت لم تغب غايتي عن عيني؛ فكنت أبيت أحلم بشولتو، وقتلتُه مئات المرات في أحلامي. لكن أخيرًا، منذ ثلاث أو أربع سنوات، وجدنا أنفسنا في إنجلترا. لم أجد صعوبة في معرفة مكان إقامة شولتو، وشرعت في محاولة اكتشاف ما إذا كان قد حول الكنز إلى أموال أم ما زال محتفظًا به. تقربت إلى شخص يمكنه مساعدتي — لن أذكر أي أسماء لأني لا أريد أن أورِّط أحدًا آخر في الأمر — وما لبثتُ أن عرفت أنه لا يزال محتفظًا بالجواهر. بعدها حاولت الوصول إليه بعدة طرق، لكنه كان ماكرًا، وكان يحرسه طوال الوقت ملاكمان محترفان، بالإضافة إلى ابنَيه وخادمه الهندي.

لكن في أحد الأيام سمعت أنه على فراش الموت؛ هُرعت إلى حديقة منزله، وأنا أخشى أن يُفلت من قبضتي بتلك الطريقة، وعندما نظرت من النافذة رأيتُه يرقد في فراشه وعلى جانبَيه يجلس ولداه. كنت سأدخل من النافذة وأجازف بفرصتي أمام ثلاثتهم، لولا أني رأيت فكَّه يتدلى حين نظرتُ إليه وعرفت حينها أنه قد فارق الحياة. لكني دخلت إلى غرفته في تلك الليلة، وفتَّشت أوراقه لأرى إن كان بها إشارة لمكان إخفاء مجوهراتنا. لكن لم أجد أي إشارة؛ لذا ذهبت وأنا أشعر بالحقد والغضب الدفين. ذكَّرت نفسي أني إن قابلت أصدقائي السيخ مرةً أخرى، فستريحهم معرفة أني تركت علامة تدلُّ على كرهنا؛ ولذا رسمت علامة الأربعة كما رسمتها من قبل على المخطط ووضعتها على صدره. فكان سيعزُّ عليَّ أن يوضع في قبره دون أن أترك له تذكارًا من الرجال الذين نهبهم وخدعهم.

كنا نكسب عيشنا في ذلك الوقت من عرض تونجا المسكين في المهرجانات الترفيهية وما شابه على أنه شخصٌ أسود آكل للحوم البشر؛ فكان يأكل اللحم النيِّئ ويرقص رقصة الحرب؛ لذا بنهاية يوم العمل تكون قبعتنا قد امتلأت بالنقود المعدنية. كانت الأخبار لا تزال تردني من بونديتشري لودج، ولعدة سنوات لم يرد شيء إلا أنهما كانا مستمرَّين في بحثهما عن الكنز. لكن أخيرًا أتانا الخبر الذي طالما انتظرنا سماعه، وهو العثور على الكنز. كان مخبأً في الجزء العلوي من المنزل في معمل السيد بارثلوميو شولتو الكيميائي. ذهبت على الفور إلى المنزل وألقيتُ نظرة على المكان، لكني لم أتصوَّر كيف سأتسلق إلى الغرفة بساقي الخشبية. لكني عرفتُ بوجود بابٍ أفقي في السطح، وعرفت كذلك الساعة التي يتناول فيها السيد بارثلوميو شولتو عشاءه. فكَّرت أنه بإمكاني تدبير هذا الأمر بسهولة بمساعدة تونجا. أحضرته معي وربطتُ حبلًا طويلًا حول خصره. كان يستطيع التسلُّق ببراعة كالقط، وما لبث أن وصل إلى الغرفة عبر السطح، لكن شاء الحظ السيئ أن يكتشف أن بارثلوميو شولتو لا يزال في الغرفة. اعتقد تونجا أنه فعل شيئًا في غاية الذكاء عندما قتله، فقد وجدته يتبختر باختيال كالطاوس بعد أن تسلَّقت الحبل ودخلت إلى الغرفة. وقد شعر بالدهشة عندما ضربتُه بطرف الحبل ووصفته بالشيطان الصغير المتعطِّش للدماء. أخذت صندوق الكنز وأنزلته بالحبل، ثم نزلت أنا بعد أن تركتُ علامة الأربعة على الطاولة للدلالة على أن المجوهرات عادت إلى مستحقِّيها الأصليين. بعدها سحب تونجا الحبل، وأغلق النافذة، وهرب من نفس الطريق الذي دخل منه.

هذا كل ما لديَّ لأحكيه لكم. سمعت مراكبيًّا يتحدث عن سرعة زورق سميث الذي يدعى «أورورا»؛ لذا فكرتُ أنه سيكون مفيدًا لنا في الهروب. اتفقت مع العجوز سميث، ووعدته بأن أعطيه مبلغًا كبيرًا من المال إن أوصلنا سالمَين إلى سفينتنا. كان بلا شك يعلم أن ثمة أمرًا شائكًا، لكنه لم يطَّلع على سرِّنا. هذه هي الحقيقة، وأنا لا أخبركم بها أيها السادة لتسليتكم؛ فأنتم لم تنفعوني بشيء، بل لأني أومن بأن خير دفاع لي هو أن أقول الحقيقة كاملة؛ ليعلم الجميع كم ظلمني الرائد شولتو! وكم أنا بريء من دم ابنه!»

قال شيرلوك هولمز: «يا لها من حكاية غريبة، وأنسب خاتمة لقضية مثيرة للغاية. لم أجد جديدًا في الجزء الأخير من روايتك، إلا أنك أحضرت معك حبلك الخاص، فلم أكن أعرف ذلك. بالمناسبة، كنت آمل أن يكون تونجا قد فقد جميع سهامه؛ لكنه مع ذلك أطلق علينا واحدًا ونحن في الزورق.»

«لقد فقدها جميعًا بالفعل يا سيدي إلا واحدًا كان بداخل قصبة النفخ حينها.»

قال هولمز: «بالطبع، لم أفكِّر في ذلك.»

سأل المجرم بلطف: «أهناك أي نقاطٍ أخرى تودُّ سؤالي عنها؟»

أجاب رفيقي: «لا أظن ذلك، شكرًا لك.»

قال أثيلني جونز: «حسنًا يا هولمز، لا أمانع أن أسايرك؛ فنحن جميعًا نعلم أنك خبير محنَّك في مجال الجريمة، لكن الواجب هو الواجب، وأنا تماديتُ كثيرًا عندما استجبت لما طلبتَه مني أنت وصديقك. لن أرتاح إلا بعد أن أضع راوينا هذا خلف القضبان. ما زالت عربة الأجرة تنتظر وهناك كذلك شرطيان بالأسفل. أنا ممتنٌّ لكما للغاية على مساعدتكما، وبالطبع سنطلبكما للشهادة في المحاكمة. عمتما مساءً.»

قال جوناثان سمول: «عمتما مساءً أيها السيدان.»

قال جونز الحذِر وهما يغادران الغرفة: «من بعدك يا سمول، سأتوخَّى الحذر حتى لا تضربني بساقك الخشبية، كما فعلتَ بذلك الرجل في جزر أندمان.»

علَّقتُ قائلًا بعد أن جلسْنا ندخِّن في صمت لبعض الوقت: «وبهذا تنتهي مأساتنا الصغيرة. أخشى أن هذه ستكون آخر فرصة يتسنَّى لي فيها دراسة أساليبك، فقد منحتْني الآنسة مورستان شرف قبول طلبي للزواج منها.»

أطلق زفرة تنمُّ عن الاغتمام الشديد، وقال: «كنت أخشى ذلك، لا يَسعني تهنئتك حقًّا.»

آلمني ذلك نوعًا ما، وسألته: «ألديك ما يدعو لأن تكون غير راضٍ عن اختياري؟»

«على الإطلاق، أعتقد أنها من أكثر الشابات التي قابلتهنَّ سحرًا، وكانت ستُفيدنا كثيرًا في أعمالنا هذه التي نقوم بها؛ فهي تملك موهبة لا غبار عليها في ذلك المجال؛ أرأيت كيف احتفظتْ بمخطَّط كنز أجرا دونًا عن جميع أوراق أبيها الأخرى؟ لكن الحب أمرٌ عاطفي، وكل ما هو عاطفي يتعارض مع المنطق البحت الذي أُقدِّمه على كل شيءٍ آخر. أنا شخصيًّا لن أتزوج خشية أن يتأثر حكمي على الأمور.»

قلت ضاحكًا: «أعتقد أن حكمي قد ينجو من تلك المحنة، لكنك تبدو مرهَقًا.»

قال: «لقد بدأت آثار الإعياء تظهر عليَّ بالفعل؛ سوف أرقد واهنًا مثل خرقة بالية لأسبوع.»

قلت: «أستغرب كيف يتناوب ما أُسمِّيه كسلًا بالنسبة إلى أي رجلٍ آخر مع نوبات النشاط والهمة الشديدة لديك.»

أجاب: «نعم؛ فأنا أملك مقومات شخصٍ كسول، وكذلك شخص شديد النشاط. وكثيرًا ما أفكر في تلك السطور التي كتبها جوته:

خسارة أن الطبيعة لم تصنع إلا نسخةً واحدة منك فقط؛
فقد كان ثمة ما يكفي لخلق رجلٍ وقور وآخرَ محتال.

وبالمناسبة، فيما يخصُّ قضية نوروود تلك، لقد كان للمجرمين، كما ظننتُ، حليف داخل المنزل. كان ذلك الحليف هو الخادم لال راو؛ لذا في الحقيقة يستأثر جونز بكامل الفضل في اصطياد سمكةٍ واحدة من المتورِّطين الفعليين في شباكه.»

علَّقت قائلًا: «تبدو لي هذه قسمة غير عادلة؛ فقد قمتَ أنت بالعمل كله في تلك القضية، وفزتُ أنا منها بزوجة، ونُسب الفضل فيها لجونز، فماذا تبقى لك؟»

قال هولمز: «تبقَّى لي قنينة الكوكايين.» ومدَّ يده الطويلة البيضاء ليتناولها.


هنداوي